ذات النقاب الزنجية
قصة قصيرة

فجأة وجدت الثانوية العامة ولتْ مدبرة ولم تعقب، وإن ألقت ببعض ظلالها على بعض زملائي مرة أخرى ممن رغبوا في تحسين مجموعهم أثناء الدراسة الجامعية التي لم يقنعوا بها، فهم يريدون كليات القمة، أو على الأقل كلية يضمنوا عقب التخرج منها الحصول على فرصة عمل، أمّا أنا فلا أرغب في السير إلى الوراء ولو كانت خطوة واحدة يُظنَّ فيها الاحتراف، وكنت أكثر زملائي من أهل القرية مجموعاً، فدخلت كلية دار العلوم، وإلى الآن لم أعرف السرَّ في ذلك، وجئت إليها في أول يوم متطلعاً، أنظر إلى كل شيءٍ يقابلني في الطريق وكأنّه برقية تطير في الهواء منها إليَّ لتعلمنى شيئاً عنها،وعندما وصلت إليها تأملت بناءها علنى أجد فيه مفتاح السر الأكبر الذى كان سبباً في انتسابي أليها، ثم أتحول إلى أناسها أحاول أن أنقب فيهم عن السر الذي لم أجده في البناء، فأن نظر إليَّ أحد الزملاء ظننتُ أنَّه الآخر يبحث عن ذات السر، غير أني وجدت بها شيئاً جذب انتباهي وبدأت أفسر السرَّ في ضوئه، وهو تطابق هذه الكلية مع قريتي قليلاً، فالملتحون فيها أكثر من أي كلية أخرى وكذا المحجبات والمنقبات. تماماً مثل قريتي بالنسبة لما جاورها من القرى وهذه الحقيقة الأخيرة لم أنتبه إليها وأجزم بصحتها إلا وأنا واقف أمام المدرج أنتظر ميعاد المحاضرة، وولجت باب المدرج وأنا واجم وغارق في تفكيري، ولم أكن قد صنعت زملاء بعد كيما يشاركونني إياه، فربَّما خفَّفوا عني العناء أو وجدت لدى أحدهم تفسيراً.

وجلست في أحد البنشات المتقدمة وأنا ما زلت أؤصِّل العلاقة بين قريتي وبين الكلية كادًا في ذلك ذهني، وفي لحظة خاطفة وعفوية نفضت هذه المسألة عني ونظرت إلى يميني فوجدت حلقة لا تختلف كثيراً عن تلك التي كُنَّا نقيمها ونحن أطفال بعد

صلاة العشاء نتداول فيها الحواديت والحكايات عن الجان والعفاريت والنوادر، مع اختلاف بسيط في مكونات هذه الحلقة لا يتجاوز الملابس الجديدة وبنية أشخاصها الجسدية، وتلك الإطارات الزجاجية التي توارت مِن خلفها براءة العيون، وكذا بعض اللحى الناشئة التي تبالغ في التعبير عن نفسها وكأنَّها تعلم بتجاهل الجميع لها، وكذلك أنَّ هذه الحلقة ليست به وحدة وتقارب الحلقة الطفولية البريئة، فالمَسْند الخشبي للبنش يحول دون تواصل عناصرها، وأذكر أنَّني كنت عندما أشارك في هذه الحلقات البريئة كنت أحاول جاهداً أن أجلس وسط الحلقة أو على الأقل ألا أجلس على حافة المصطبة الطينية التي كُنّا نجلس عليها، لاسيما إذا ما كان الكلام عن الجان والعفاريت، غير أن هناك عنصراً آخر يمثل جوهر الخلاف بين الحلقتين، فلم يكن هؤلاء الزملاء الجدد يتحاورون في مثل ما كُنَّا نتحاور فيه صغاراً، ولم يكن الكلام بينهم منظماً في تداوله كما كان فوق المصطبة الطينية فقد أخذوا يتبارزون بألسنتهم حتى ظننتهم في حرب، وأخذوا يتكلمون في أسماءِ كتبٍ ومؤلفيها لم أسمع بها من قبل، فأنصت إليهم دون أن أكون أحدهم، وإذا جاء أحدهم بشيءٍ في حديثه أعرف عنه ولو طيفاً بعيداً أشعر بالألفة تجاهه وأتوقع أن نكون أصدقاء في يومٍ من الأيام، وهتكوا بألسنتهم مواضيع عدة، بعضها سمعت به في خطبة الجمعة أو من مدرسي اللغة العربية في الثانوية العامة أو بالمرحلة الإعدادية، والكثير منها لم يئُم إلى مسامعي قط.

وأنا عائد إلى قريتنا في ذات اليوم كنت أشعر كأنَّني من كبار مثقفي القرية، ولأول مرة أجدُ الرغبة لدي في أن أركب في كبينة السيارة النقل التي نعود فيها من المركز إلى القرية، رغم أنِّى ما ركبت من قبل إلا على ظهرها، ولكني لم أجد السبيل إلى ذلك فاستسلمت مؤقتاً لأن أركب على ظهرها وركنتُ إلى أحد جوانبها، كما كنت أفعل من قبل، ومازلت أفكرُ في السرِّ علني

أجد مبرراً لتنقلاتي هذه ومحاولاً أن أقرأ سطور المستقبل الباهتة، وسرحت بخيالي قليلاً ولم أعد إلا وقد صدم عيني اليمنى طرف جريد لنخلة على الطريق، وطُرفت عيني وأضحت حمراء يواسيني فيها كلُّ زملاء الطريق.. لم أجد بداً حينها من التخلي أفكاري آملا العود إليها سريعاً، ولعلَّ الألم هو الذي أطار بها رغماً عن أنفي.

دخلت البيت وأنا شبه باكٍ، وعندما قصصت الأمر على أمي أمرتني لأن أذهب إلى أم ربيع غرب القرية كيما تحلب لي فيها، رفضت الفكرة مقدماً وأبيتُ وأنا المثقف الواعد – أنْ أتقلب في طرقات القرية حتى هذه المرأة، وقلت لأمي غداً وأنا ذاهب إلى الكلية سأمرُ بإحدى الصيدليات وسأجد فيها علاجاً، ويبدو أنَّى أتكئت على كلمة الكلية وأنا أكلم أمي، ولا أدري لماذا! لكنَّ أمي أصرت أنْ أفعل ما قالت، وجاء أبي وكان في جانبها، فأخذت أتجاوز شارعاً إلى آخر حتى أتيت إلى بيت أم ربيع وأم ربيع هذه ليست الزنجية الوحيدة في القرية غير أنّ أمي تعرفها جيداً؛ فأرسلتني إليها خصيصاً، وأتيتُ بيتها كما وصفته لي أمي، ووجدت طفلاً زنجياً جميلاً لا يتجاوز الخامسة جالساً أمام الباب فسألته عن اسمه، قال بتهتهة طفولية فيها من غطرسة الحكام المستبدِين في كلامهم الكثير، وكأنَّه يريد أن يصفعني على وجهي: وأنت مال أبوك باسمي. يبدو أن كلماته هذه كانت طرقاتٍ حديدية على رأسي فسرحت بخيالي إلى الكلية حيث الكلمات المرصوفة التي عُمِد فيها التفيهق وإجهاد النفس في العثور على اللفظة الفصيحة، فبدت وكأنها مشتقة من القرآن، وأثناء وقوفي أمام هذا الطفل جاءت إليه طفلة صغيرة تريد أن تلعب معه، ولم تكن زنجية مثله، فأجلسها إلى جواره، وقرَّب منها لعبه الطينية، ولما تنبه لوجودي، أمسك بيدها وقام مختبئاً بها في شارع آخر، فأخذت أتلفت يمنة ويسرة لأجد من أسأله فلم أجد أحداً، وبعد قليل وجدت امرأة منقبة، لا يبدو من وجهها إلا

عيناها الحوراوان اللتان تبدوان كعيني رشا ولد البارحة، وأنف رقيق ينهض بالنقاب كعمود الخيمة، غير أن بشرتها السمراء أضفت على كلِّ ذلك جمالاً فوق هذا كله، وكان فوق رأسها قفة صغيرة لا أدري ما بها. فنظرت إلى وجهي قليلاً، ثم أمرتني باسمي أن أنتظرها قليلاً، وأنا مازلت واقفاً لم أتكلم.

غابت في البيت لدقائق ثم خرجت عليَّ لتأمرني بالدخول، وما إن وضعت قدمي داخل هذا البيت إلا ومُلئت أنفي بعطب الطوب اللبن، وبدت الجدر برطوبتها وكأنَّها لم تجفّ بعدُ مِن يوم أن صُنعت طيناً طريَّاً، ودخلت غرفة تبدو مرتفعة قليلاً وأمرتني أن أدخل وراءها، وجلست مربعة على أريكة شبه متهالكة، وأمرتني أن أتمدّد على باقيها، وأتوسَّد حِجْرَها، وأنا لا أجدُ كلاماً أتكلم به، فقد جئت مِن نفسي وأنا صاحب الحاجة، فلم أجدُ بدًّا إلا أن أفعل ما تقول، وكشفت عن وجهها فبدت بملامح طفولية بريئة، وحصرت عن صدرها جلبابها، وأخرجت ثديها، وحلبت قليلاً في عيني وأنا لا أدرى هل أندم حقاً على تلك اللحظات التي أغمضت فيها عيني لا إرادياً، أم أنَّه كان واجبٌ عليَّ أن أنظر إليها على أنَّها أمي، وهي لا تزيد إلا قليلاً عن أختي التي تكبرني، أم كيف كان يجب أن يكون موقفي.

كلُّ هذا جال بخاطري ورأسي بين رجليها، يبدو أنه كان يجب عليَّ أن أنهض برأسي لكني انتظرت بعض الوقت دون أن أدري، وكان يجب عليها أن تشير عليَّ أو تُلمِّح بذلك وتصلح من شأنها ولكنها هي الأخرى أبت. وفجأة مالت عليَّ وقبَّلتني في شفتيَّ وكانَّ ذلك لا إرادياً، فشعرت وكأنِّي صعقت بصدمة كهربائية عنيفة، فانتفضت قائماً تاركها وبيتها إلى الشارع، وأنا أغمض عيني بشدة وأفتحها وكأنَّي أريد أن أعصرها لتنزل ما بها، وعدتُ إلى البيت واجماً لا أشعر بالدنيا وما بها من حولي، ودخلت على أبي دون أن ألقي السلام على غير عادتي، وجلست بالمقابلة له على الصفرة البسيطة، وأخذ يحملق فيَّ وأنا مثبت

نظري على مفرش الصفرة، وجاءت أمي لتضَع أمامنا أطباق الطعام، يبدو أنَّها جذبت انتباهي إليها بدخولها، فألقيت نظري عليها فلم أر منها غير نقابها المنتحى عن وجهها مؤقتاً، فانتفض كياني الداخلي كله، فصرفت نظري إلى أبي فوجدته منهكاً في طعامه، ولحيته تكاد تشاركه فيه، فازدادت حالتي سوءاً، فصرفتها إلى الطعام وكأني لا أجد ملاذاً أو مهرباً، وعندها تذكرت الزنجية وما فعلت. أمسكت بالطبق أتشمَّمه كالقط الذي يخاف الموت مسموماً.

منذ عشر سنوات وأنا أسير لهذه الجدران.. لم أكن أتخيل أيام حريتى وأنا أعيش بين أبى وأمى وأخوتى البنات الأربع، أن الأيام تخبئ لي هذه الأسوار والجدران العتيقة.

الشعر الأبيض فى رأسى غالبية وأنا مازلت فى الخامسة والثلاثين ولم يبق لى فى هذه الجدران غير يومين، هى باقى حقى وإن كنت أرجو أن أكمل حياتى هنا، حيث راحة الضمير وقد تأقلمت مع جو السجون أكثر من غيره من الأماكن... أذكر أول مرة وطئت فيها قدماي أرضه. فمازالت رائحة العرق تطن في أنفى.. لم يكن العرق يأتى إليها إلا وقد تشبع بالأدخنة، وهى أدخنة منها ما كنت أعرفه، ومنها ما عرفته فيما بعد.. كان ينتابنى أثناء صمتى تعاطف تجاه هذه الأدخنة، وإن كنت أحرى بأن أشفق على نفسى، إلا أننى كثيراً ما تعاطفت معها رغم أنفى. فهذه الأدخنة مجبورة على أن تُقبِّل أفواهاً تكره نفسها، أفواهاً علاها الشعر من كل جانب في غير نظام أو تهذيب، ثم تجبر ثانية على أن تخترق آفاقاً سوداء مادةً ومعنى..كنت أكره كل من كان معى فى السجن بعد الحكم أو فى الحجز قبل الحكم. كان منهم من يريد أن يتقرب منى، لكنَّ كرهى لم يعطهم فرصة حتى من لاينته قليلاً كنت سريعاً ما أنقلب عليه وأتجنبه تماماً، بل وأعنف نفسى على أن سمحت له بأن يجالسنى وأستمع إليه. بعدما صدر الحكم ورُحِّلت إلى السجن. بعضهم ساعدنى، فما أكثر الخدومين بينهم، أحياناً أشعر أننى مقصرُ تجاههم، حتى أولئك الذين يرمقوننى عند بعد من فوق الأسَّرة، لم يحك لي أحد منهم قصته ورأيته مظلوماً، كنت أرانى المظلوم الوحيد بينهم، ولكن أنا الذى ظلمت نفس، فأنا القاتل والمقتول.

فى يوم من العام الثاني لى داخل هذه الأسوار وبعد أن انتهينا من أعمال النظافة التى نقوم بها كل يوم في السجن ودورت

المياه جلست جلستى التي عهدها الجميع مطبقاً زراعى على رأسى دافناً إياه بينهما وبين رجل وبين بطنى جاء سعيد الحشاش وجلس إلى جوارى، كل المسجونين ينادونه بالحشاش وهو يصر دائماً على أن يناديه زملاؤه بأبى "مروة"، ولكنهم يصرون على الحشاش ويقسم لهم أن له ابنة اسمها مروة لكي ينادوه بها وفي نفس الوقت يؤكد أنه لم يتزوج أمها، وإنَّما هي إحدى عاشقاته فيأبى الجميع أن ينادوه باسم هذه الطفلة ظالمين إياها به أو ظالمينه بها... أراد سعيد أن يكسر الحاجز الذي صنعته بينى وبين كل المسجونين، وبدأ يحدثنى عن نفسه، لم أكن أصغى إليه جيداً، ولكن إصراره على الحديث معى جعلنى بين الحين والآخر ألتقط بعض ما يقول.. هو يرى نفسه مظلوماً شأن كل المسجونين، أما أنا فلا أقتنع بذلك؛ فهو وإن ولد ولم يجد له أباً ولا أماً أو أى عائل في الدنيا إلا أنه كان بإمكانه أن يعيش حياة سعيد كاسمه.. كنت أشعر من إيحاء اسمه أنه خلق ليكون سعيداً فهو كثير الضحك وأكثر المسجونين ثرثرة. يبرر سعيد عمله في تجارة المخدرات بيتمه وأن الحياة لم تعطه ريقاً طيباً أبداً، وأنا لا أستطيع أن أراه إلا مجرماً. بالليل تتداعى عليَّ الكوابيس حتى شطرٍ كبيرٍ منه، ثم أستيقظ وأجلس قليلاً مع نفسى وأنام باقى الليل، وكل ليلة لا يتغير هذا النظام. أحياناً تتغير الكوابيس، غير أن أكثر الكوابيس مهاجمة لى ذلك الكابوس الذى أرانى فيه ممسكاً بشعلة نار كبيرة أجرى بها في الطرقات المظلمة، وأتعثر كثيراً، ثم أتوقف لأشعر النيران في نفسى بهذه الشعلة، والكوابيس الأخرى لا تختلف عن هذا كثيراً. كنت أحاول عبثاً أن أتخلص من هذه الكوابيس بنسيان الماضى. كثير من المسجونين يروننى عندما أهب من نومي مفزوعاً، بعضهم أشار علي بأن أغسل ذاكرتي بالمساحة والفنيك – حسب تعبيره – تماماً كما نفعل بدورات المياه في السجن، قال إنَّ هذه الطريقة جيدة فقد أجدت معه كثيراً. فهو بعد أن أضرم

النيران في زوجته اعتبرها منثورة الرياح تماماً كما يفعل الهندوس في موتاهم، واعتبر أن تلك رغبتها كيما يسامحها الله على ما أسلفت، ونسيها تماماً.

منذ أن نفث هذا الزميل بنصيحته هذه في أذنى وانصرف من جوارى وأنا أتمرن على النسيان، لكنَّى غدوت بغير قصد أتمرن على استذكار الماضى كيلا يضيع، وأبدأ حيث دخولى السجن عندما قررت أن أقتل "مديحة"؛ حبى الأول والأخير، وإن كنت دائماً أشك فى كونى قادراً على الحب فى هذه الآونة أم لا.

صورة السكين لا تفارق خيالى.. مازال بريقه تحت أشعة اللمبة الفلورست يبرق فى عينى، أذكر جيداً نظرتها بعينين ملؤهما الريبة والشك وقد خبَّأت السكين ورائي وأنا أقترب منها بخطوات مثقلة تأبى الحِراك، ثم تحولت نظراتها إليَّ نظرات استعطاف وإشفاق على النفس. يبدو أنها كانت تعلم أن حياتها قد انتهت وأنه لا جدوى لأى محاولة فى الهرب أو طلب النجدة... كنت مشفقاً عليها فلم أطعنها إلا طعنة واحدة، كانت يدى مترددة فيها، يبدو أنه أجلها الذى انصرم وحدة السكين اللعينة. تركتها تسقط من زراعى الذى عاونها وآزرها فى محنتها من الخلف وساعدها في أن تتلقى الطعنة جيداً. وهي جثة هامدة كنت مرعوباً، ولكنَّ رعبي لم يظهر ولم يخرج عن نفسي، سقطت على الأرض وقد فاض كشها بالدمِّ في كل جانب، وامتلئت سجادتنا بدمائها. أنا أذكر جيداً اليوم الذي اشترينا فيه هذه السجادة مع بعض الموكيت عشية ادخارنا لأثمانها، كما أذكر أن من الأشياء التي أعجبتني في مديحها وتحديداً في جسدها رشاقتها وكشحها الممشوق الذي ما دققت النظر فيه قط إلا وتذكرت تلك الصور التي كانت بالمجلات التي كان يأتي لي بها فاروق وأصبحت أشتريها باستمرار فيما بعد. وفاروق هذا زميل الإعدادية والثانوية، وكان له الفضل علي في تعلم أشياء كثيرة، علمني كيف أستمتع بهذه الأجساد العارية، علمني كيف

أستفيد من الغير حسب ما أريد ودون أن أفد أحداً، علَّمني أن المرء يجب أن يكون خادماً لنفسه ملبياً طلباتها في أي وقت، وعلى هذا عشت ردحاً طويلاً.

كان فاروق مخلصاً لي إخلاصاً ممتنع النظير، كان يوافيني دائماً بما يَجِدُّ من أحدث وسائل تلبية الرغبة وطلبات النفس، وكنت أتقبلها منه بكل امتنان واعتراف بالجميل، وكنت أتمنى أن يأتي اليوم الذي أعوضه فيه عن بعض ما بذل من أجلي. أنا أذكر أول مرَّة عرفته فيها عندما عقد معي اتفاقية مفادها أن أعينه على الامتحانات قدر المستطاع كيما يستطيع العبور، في أول مرة، كنت أساعده إشفاقاً ورحمة، وبعدها كنت أساعده لحاجة لي، فأنا لا أستطيع الاستمرار بدونه، كنت نتزاور دائماً، ولكنه لم يكن ليجلس في بيتنا إطلاقاً فقد كان يأتي ليصطحبني إلى بيته، حيث الترحيب من أبويه فقد كان يعرفانى قبل ان يرايانى ،يبدو انه حدثهما عنى كثيرا، كان يفجر كثيرا بمصاحيتي. كانت أمه جميلة ،تقترب بعض الشيء من أولئك اللاتي يقبعن عرايا بمجلاتي. في البداية لم أكن انظر إليها إلا قليلا ويداهمني الخجل حينها ، وبعد ذلك كنت أطيل النظر إليها خلسة من ورائه، أدقق النظر في أردافها وأثدائها، وشعرها المسترسل كنت أشممه عندما تقدم لنا الشاي أو غيره من المشروبات الساخنة التي كانت تحرص على تقديمها بغير طلب، أحياناً كان يضبطني متلبساً بنظراتي ولا يبالي، وهي كذلك أظن أنها كانت تعرف ما بداخلي وتعذرني، كانت تحترم خصوصياتنا وهذا أكثر ما عجبني فيها مازلت متفوقاً رغم كل هذا، ربما حرصت على تفوقي لأحافظ على فاروق و...

أحبت كثيراً سخَّان المياه الذي بالحمَّام لدينا، حرصت على الماء الساخن صيفاً وشتاءً، أقف تحتها كثيراً كنت أشعر وكأنَّي أحتضن أنثى ملئوها الحيوية والدفء وأقبلها، وانتهي بتلبية النداء المدوي بداخلي.

في الكلية تعرَّفت على مديحة، أحببتها وأحبتني. عيناها اللتان أراهم مفتوحتين بعد أن فارقت الحياة مما أعجبني فيها؛ رموشها الطويلة وغزيرة، وكانت تزداد جمالاً عندما تُسْبلهما. وأنا أنظر إليها وهي جثة كانت تنتابني الرغبة في أن أغلق عينيها، لأرى مشهداً كنت أحبه كثيراً لآخر مرة، ولكني ما فعلت.

تعاونت معي في تكوين عشنا، ما كنت أرجو أن أحصل من امرأة على ما حصلت عليه منها من تعاون وشهامة، هذا قبل الزواج.

ليلة عرسنا سهرنا طويلاً بغير جدوى، لم تجد مني ما كانت ترجوه. لم تكن تطمع في المستحيل، وهذا بعض تعاونها في أول الزوجية، حاولت أن تكون طبيعية، وأنا أجاهد نفسي متذكراً مجدي الغابر أترى نفسي قد تخلت عني في وقت احتياجي لها؟ كدت أبكي! هي تصطنع السعادة، ولكنَّها لا تجيد التمثيل، تتكلم معي بما لا يجدي... تساعدني... يبدو أن أعصابها تلفت، وأنا أستعر ناراً داخلاً وخارجاً. أخرج للعمل ولا أرى غيرها أمامي في كل مكان وهي تتمزق، شحب لونها، وغاصت عيناها قليلاً بين ملامحها، لم نعد نجلس على المائدة معاً، أظنها لا تأكل، وبعد مرة ليست بطويلة تحولت مديحة إلى شيء آخر، أصبحت تضحك. بل كان ذلك منها كثيراً، دائمة الحراك في الشقة، يمنة ويسرة، جسدها مملوء بالحيوية والنضارة. كانت في بداية الزوجية قليلاً ما تفارق كنبة الأنتريه.

اهتمت بعض الشيء بمظهرها وملابسها، تراها نسيت جسدها وعادت طفلة بريئة كبيرة، أم ماذا حدث؟ تسربت الريبة إلى نفي لم نعد نتكلم معاً كثيراً وهي مستلقية على سريرها كانت ترتسم على ملامحها ابتسامة تحاول أن تخبأها.

قررت أن أزور ابن خالتي، بعد أن استنجدت بفاروق وفشلت. أظنُّ أني ما اتفقت مع ابن خالتي هذا أبداً ولكني كنت أستريح له، الشيء الوحيد الذي كان يجمع بيننا هو تفوقنا، مع اختلاف

الغاية والوسيلة، كان دائماً يقول لي:أنت ذكي ولكن يعوزك بعض الالتزام لكي تنفع بهذا الذكاء، كنت أجادله وأبرر موقفي. بيني وبين زملائي اشتهرت بالقدرة على الإقناع. أكثر ما كن يجعلنا نختلف كلامه القليل، فهو في نظري شخصية كتومة.

في حجرة الاستقبال جلسنا متواجهين، ألوانها هادئة وأثاثها بسيط، قابلني بابتسامة تمنيت أن أستطيع شراءها منه، تزوج بعدي بأسبوع واحد، لم تأت زوجته لتسلّم عليَّ. وابتسامته لا تفارقه في كل كلامه جاداً أو هزلاً. خرج ليأتي لي بمشروبي. تذوقته فقط وخرجت متعللاً، كان يصعب عليَّ أن أراه هكذا.

فتحت باب الشقة وما إن وضعت قدمي بداخله إلا وسمعت صوت مديحة تتكلم، تراها جنت وأضحت تكلم نفسها، أم جاء أحد عائلتي ليزورني وهي جالسة معه الآن، أم أنها... وجدتها تتكلم في التليفون، ولما رأتني وضعت السماعة وأنهت كلامها، بالليل كان يجب علي أن أتخذ نحوها موقفاً حازماً، وبعدها أصبحت صريع الظلمات وأسير الجدران.

بعد خمسة سنوات في السجن كنت إنساناً طبيعياً، تذكرت مديحة، تراها أين هي الآن؟ تساءلت ولم أستطع الإجابة.

أتاني الإفراج وأنا متجهاً إلى جلستي المعهودة، كنت أتوقع افتراقنا. لم يكن أحد في انتظاري، رجعت إلى شقتي وأنا أتمنى أن يكون هذا كله إلا كابوساً، وإنما أنا راجع من عملي، ومازالت مديحة تنتظرني بما في عينيها من شوق ورقة كما كانت تنتظرني أيام الجامعة.

مازالت الشقة بعد عشر سنوات كما هي. أتربة قليلة على الأثاث ربما أهملت مديحة قليلاً في تنظيفها. تدحرجت إلى المطبخ واهماً أن أجدها به. تجولت بنظري في عجالة بين أركانه. وقعت عيني على طاقم السكاكين. أذكر جيداً أن متوسط الحجم هو الذي... عدوت نحو الأكبر وأمسكت به يبدو أنه يحتاج إلى

سنٍّ يعيده حيث كان، فأخذته وخرجت من الشقة أجول الشوارع باحثاً عن سان السكاكين.

كشف المستور

كان الشيوخ والعجائز في نظرة دائمة القدوة التي يجب أن نتمثلها في كل سلوكنا؛ نحن من جعلنا القدر تالين لهم زمانيا، وربَّما كذلك في القدرة العقلية، وهذا ما جعله حريصاً على مجالسة هؤلاء الحكماء من أهل قريته... غير أنّه تدريجياً جعل لقاعدته هذه استثناءات، فقد وجد من خلال الاختلاط أنّ من هؤلاء الشيوخ من قصر عقله عن هذه المرتبة العقلية المتقدمة، وانحط به الحظ عن ذلك، وكذلك العجائز... وبهذا الشكل بدأ الحكماء في قريته يتناقصون في نظره، حتى أحسّ بخطر من جراء ذلك، وكأنّ عقله اخذ في هدم صرح عظيم سبق أن شيده ولا يريد أن يتخلى عنه؛ لذلك كان من الضرورة بالنسبة له أن يصوغ نظريته الأثيرة التي تحتفظ له بجوهر الفكرة، ولا تكون – في نفس الوقت – عامة بحيث يكشف بنفسه عدم صحتها.

ونظريته هذه باختصار تتلخص في أن للطبيعة الريفية تلاميذ اختصتهم بعلمها، وهم من أهلها، وهم في ذلك متفاوتون، فتلاميذ الطبيعة كما تصورهم منهم البليد ومنهم النبيه، وبين هاتين الدرجتين تفاوت ومساحة كبيرة.

بيد أن جدته تلك التي ماتت في اليوم الذي فيه ولد كانت من حكماء الطبيعة، بل هو يراها من أنبه تلاميذ الطبيعة... وفي الحقيقة هو لا يعرف عنها إلا بعض ما تواتر من أقوالها

المأثورة عن أفراد أسرته أو عائلته بصفة عامة، وهو لا يريد أن يعلم مدى صحة هذه الأقوال.. ربَّما خاف أن تخطئ في أحدها وبالتالي يكون الباقي في مهب الريح، لاسيما تلك الكبرى أو المقولة الخالدة التي هي كلّ ما يخصه من حكم جدته، وربّما من تلاميذ الطبيعة في قريته.

ففي اليوم الذي ولد فيه كانت جدته في فراش الموت، وأهل البيت لم يكونوا يعلمون أنّه فراش الموت، فهي كثيراً ما تضعف فتأوى إلى فراشها بعض الأيام ثم تعود إلى تدبير شؤون البيت وهي أفضل من ذي قبل، فحملته إحدى أخواته الكبيرات إليها لتراه، فلربّما كان سبباً في تعجيل شفائها، فتحاملت الجدة على نفسها وهجعت من فراشها تحمل هذا الحفيد المنتظر إلى أبيه وقد جلس مع عددٍ ليس بالقليل من رجال العائلة في المندرة، فلمّا رآها قام إليها ليأخذه منها، ولمّا قرب منها أمسكت بأصابعها العجفاء قبة جلبابه وقالت له – بصوت تعمّدت فيه إسماع الجميع: إنّ ابنك هذا سيكون وزيراً.

وهو لا يدري ماذا كان ردّ أبيه عليها أو مدى استفساره على ذلك، فالقصة قد نقلت إليه هكذا، وليس فيها مطعن للشك في عدم صحتها فالجميع يعلمونها حتى إنّ عدداً كبيراً من الجيران أيضاً يعلمونها.

وعندما كان في الثانوية العامة التي ليست ببعيدة، كان يذاكر في هذه المندرة التي شهدت هذه النبوءة السعيدة المقلقة، وعندما كان يصعب عليه شيء في دراسته كان يدور ببصره في أركان هذه الحجرة العتيقة، وكأنّه يريد أن يستنطق كلَّ ما بها ليعلم منه الحقيقة، وكيف أنّه سيصير وزيراً وها هو ذا لا يفهم هذه المسألة أو تلك العبارة.

وبعد ظهور نتيجة الثانوية العامة كان يتحير ويسأل كثيراً... ترى أي الكليات من الممكن أن يصير بدراستها وزيراً؟.. لم يكن مجموعه ليؤهله لعدد كبيرٍ من الكليات، فلم يتردد كثيراً

وآثر ألا يكون له يد في الأمر، وفضّل أن يكون الأمر قدرياً في جُلّه، ودخل أول الكليات التي تقبل مجموعه.

فى السيارة التى كان يركبها فى أول أيام الكلية كانت هذه النبوءة تسطير على فكره، فإذا نظر من الشبابيك ورأى هذا المجرى المائي الموازي للطريق ينافسه السرعة، تساءل؛ ترى أسأكون وزيراً للري؟، ثم يعود أدراجه ويقول في نفسه ولماذا لا أكون وزيراً للنقل والمواصلات مثلاً؟، فالأمر مازال مجهولاً.. بيد أن دراسته القادمة لا ترتبط بالمجالين، فاستطرد وأراد أن يكون واقعياً بعض الشيء وينزل من عالم الملائكة إلى عالم الإنس والجن فنظر إلى من يجلس إلى جواره فأول ما رأى منه رأى الشيب، فهجمت على رأسه وفكره أيضاً نظرية تلاميذ الطبيعة التي أضحت جزءاً لا يتجزء منه... وبدأت تساؤلاته؛ ترى أتلميذ هذا الشيخ للطبيعة؟ وإن كان كذلك فمن أيّ الأنواع هو؟ ولكّنه استيقظ على وقوع بصره على ملابسه البندرية، فهذا الشيخ يلبس بنطلوناً وقميصاً وهما وإن كانا يعبّران عن سنه، فإنّهما يحولان دون كونه من تلاميذ الطبيعة؛ فهي ريفية خالصة.. فجأة زجره هذا الأستاذ المسنّ لكي يفسح له قليلاً، وكأنه أبى أن يحكم عليه هذا الحكم من خلال بندريته، فأحسّ وكأنّ هذا الرجل يعلم ما في نفسه، فبدأ يراجع حكمه السابق عليه، ثم تسأل ولما لا يكون هو الذي أصبح كتابا مفتوحاً يقرأه الجميع؟. ولكن ما يدهشه حقاً في هذا الأمر هو كيف يزجره هذا الرجل هكذا، وهو مَن تنبَّأت له جدّته بالوزارة؟!!

في أول محاضراته في الجامعة كان الأستاذ مسنًّا للغاية، وهذا ما جعله يشرد خارج المحاضرة قليلاً مع نظرية تلاميذ الطبيعة حيناً، وحينا آخر مع النبوءة التي أصبحت تنفر منها نفسه لشدة طغيانها على فكره ووجدانه، ولكنه يعود مِن حيث لا يعود، فيتساءل: كيف أكون وزيراً وأنا هكذا أسرح بخيالي بعيداً عن المحاضرة؟، ولا أفهم عمّا يتحدث الأستاذ؟... تمّ اليوم الأول

وفي أثناء عودته إلى البيت كثيراً ما رأى ما يجعل النبوءة تطغى على فكره وتهجم عليه، فيظل شارداً بعض الحين ثم يعود، وفي الطريق من الجامعة إلى موقف السيارات وفي أثناء إحدى شوارده صدمته سيارة كانت قد أصرّ على تناسيها محلقاً بفكره في عوالم أخرى؛ في هذا المستقبل الغامض الذي ناله من العنت من جراء التطلع إليه ما يعادل ما سيكون فيه من سعادة إذا ما صحّت هذه النبوءة... وألقت السيارة به في جانب من الطريق.. وقلبه مازال ينبض.. والنبوءة مازالت أول ما يطفو على سطح فكره.. ولم تفلح الصدمة في الإطاحة بها... في أثناء ذلك عبثت يده في رأسه لا إرادياً ثم نزل بها إلى بصره ينظر إليها وقد أحسّ من غير وضوح بدفئها، فإذا بأصابعه تغرق في دمائه، فتساءل: ترى ألهذا الدّم علاقة بتلك النبوءة؟ ومازال يبحث في عقله عن إجابة، وأكتاف النجدة تحمله وتغيب به وسط زحام المارة من الشباب والكهولة والشيوخ والعجائز.

نــزوة

نظر إليه ابنه نظرة جعلته يحتقر نفسه إلى الحدّ الذي يراها فيه غير جديرة بالحياة، فحرىّ به بعدها أن ينتحر بأبشع الطرق التي قد يتطرق إليها فكر المنتحرين، وبدأ عبد الواحد بعد نظرة ابنه هذه له يتدحرج في خطواته في طرقة الوحدة الصحية وهو واجمٌ لا يشعر بالناس من حوله ولا الصّرخات والعويل وقد تعالى؛ تتناوبه حوائط الوحدة بطلائها الزيتي الباهت بالصفع، وبدأ يراجع نفسه في ما فعله فأوصله إلى ما هو عليه الآن... يراجع نفسه مع كلّ خطوة تنحدر معه إلى بيته الذي ما هو إلا كومة من الطين.

وافقت "راوية" أن تشاركه الحياة فيه رغم كثرة من تقدَّموا لخطبتها ومن بينهم من هو أكثر منه مالاً وأيسر حالاً.... بدأت نفسه الحقيقة تتكشف له كما هي، منحِّيةً عنها ما كانت تتجمل به من أكاذيب وأقنعة، وسأل نفسه أسئلة ليست بجديدة عليه أو عليها، فهو ونفسه يعرفا إجاباتها جيداً، إلا أنه تواطأ مع نفسه التي لا تعرف غير قضاء مآربها متجاهلة الآخرين، وأعطاها تصريح التنفيذ لما تخطط له دون أن يعترض طريقها، صانعاً من نفسه أبكماً وأصماً لا يعرف غير المشاهدة وحسب.

وبدأ يصرح في نفسه يعنّفها بما لا يجدي؛ فقد فات الأوان... وما يزداد إلا ندمَا، فها هو مجرم قاتل، ولكن لا أحد يعرف جريمته هذه إلا هو نفسه، ورُبّما ابنه... غير أن ما يزيد من ألمه هو أن جريمته هذه لا دليل عليها، وما من أحدٍ يستطيع أن يثبت ضده دليلاً إذا أراد... ورُبّما لو عوقب لاستراح.

بدأ يجول بفكره حول معالم جريمته... آه أنا من طلبتُ من "راوية" زوجتي أن تنتحر، آه يا "راوية" يا من تهالكت من أجل الزواج منكِ، وأذللت نفسي لكلّ ذليلٍ وعزيز لئلا يفوز بك غيري... لكم أحببتك كما أحببتني... عشتي معي الحياة حلوها

ومُرّها دون أدنى تذمرٍ أو نفور، ولكم عانيتي معي وساعدتني في أرضي لتخرج الكلأ الذي يسد أفواه عزوتي منكِ... لكم أعنتني على مصروفات إبراهيم ابننا... إبراهيم آه إنه الهدية الكبرى منك إليَّ يا حبيبتي، - لكم يستعصي عليك الدمع يا عبد الواحد - كنت بحق يا إبراهيم هديتها الكبرى، فلرُبَّما لا يدخل كلية الطب سواك في القرية لسنين طويلة، كما كنتَ أول من يدخلها من القرية التي بكَ وضعتني في قائمة رجالها المحترمين... وانتحرت "راوية" وأجابت الطب... نعم انتحرت بأمرك... أتنكر أنّ طلبك منها أن تعاود الحمل – بحجة لا تقتنع أنت بها ما هو إلا انتحار موثوق من نتيجته؛ ففضلاً عمَّا ترى به من الضعف فقد أكد لك الأطباء أن محاولتها الحمل والولادة مرَّة أخرى فيه إنهاء لحياتها دون شك.

نعم أمرتها وكنت أعلم النتيجة، كما أعلم أنه لم يدفعني إلى ذلك غير تلك التىسلبت عقلي، وصنعت مني عاشقاً حدّ الجنون... أتذكر يا عبد الواحد أن سعاد ابنة الحاج منصور بشعرها المتماوج اللامع تحت أشعة الشمس الساخنة، وكأنّه يتحدث حديثاً أنثويا يطير بلبك – أتنكر أنها فتنتك؟

أتنكر أنَّ هذا الشعر الذي طالما حصرت عنه غطاءها إذا ما جالستك هو سبب نكبتك؟ أو أن ساقيها اللتين تبدوان رقيقتين ناعمتين تكاد ترى سحنتك في بياضهما وقد أبى جلبابها القصير أن يمنعهما أعين الناس الجائعة؟... أتنكر أنهما قد غرستا فيك روحاً شيطانية تجعل منك مجرماً يصب إجرامه على أقرب النَّاس منه.

يعلو صوت نفسه بداخله حيناً... يقف مستنداً إلى أحد الأعمد بطرقة الوحدة الصحية، ولعلّه في الحقيقة يحاول أن يثبت نفسه أمام ذلك الصّوت الشيطاني المدوي بداخله، سائله: أليس هذا ما كنت ترجو؟ فها هو الطريق خالٍ أمامك كيما تتزوج بسعاد، تلك التي سلبت لبّك حينما رأيتها الرؤية الحقيقية أول مرَّة عندما

خرجت عليك من الذرة... نعم خرجت عليّ ساعة قد تناوبت الجهاد معك يا "راوية" ولولا أنها ساعة حرٍّ نادرة لرُبَّما كنت مكاني؛ وما حدث ما حدث.

عادت خطواته تترامى على أرضية الطرقة مرَّة أخرى بساقين مهدلتين فقد ذهب معضدهما وتلاشى مع ريح الخيانة والغدر.. الأمر الذي يصيبه بالرَّعب في كل هذا هو إذا ما كانت الأمور قد انكشفت لضحيته المسالمة أم لا..ولأكثر ما يزيده رعبًا وندماً أن تكون زوجته قد علمت ما بداخله ورغم هذا أجابت طلبه فى استسلام وبراءة أو أملاً في خطأ تقدير الأطباء... ثم هذه النظرة التي صفعه بها ابنه، فلكأنه يعلم الأمر بتفصيلاته بينه وبين تلك الأفعى سعاد.

كل هذا والدموع تستعصي عليك يا عبد الواحد... كان عبد الواجد في ذروة هذه الأفكار والتداعيات التي تنهال على عقله قد وصل إلى آخر الطرقة؛ حيث ربط حماره... وقعت عيناه على وجه حماره وقد ارتسمت عليه البراءة في أوضح صورها.. فلا أقنعة.. ولا كذب.. ولا خداع. أفكّ قيد حماره وركبه وهو يحاول البكاء ولكن الدمع يجمد في عينيه... عبد الواحد واجم لا يشعر إلا بما داخله وحسب، والحمار يخطو وهو واثق من طريقه.

في أول القرية كانت سعاد قد خرجت إلى الأرض لتقضي حاجة في نفسها، وما إن رأته مقبلاً أشارت إليه... لم يعبأ بها، فاقتربت منه منادية باسمه مرّة أو مرات... لم يجبها بشيء... عيناه مفتوحتان... جاحظتان وعنقه مائلٌ على كتفه... فتجاوزها الحمار ومضى في طريقه.. يعرفه جيداً، وهي مازالت ملتفتة إليه حتى غاب عنها، وهي لا تعلم أنّه غياب إلى الأبد.

معذرة طبيبي

يتحطم جدار الصمت تحت طرقات سعاله المتلاحقة... كره حنجرته... وكره صدره... كما كره إلحاح زوجته عليه في أن يذهب للطبيب، وأمرها له بأن ينهض ليأخذ كوباً من ماء الزير العتيق، سعاله لا يرحمه، لا يدع له فرصة في أن يصل إلى كلمتين بعضهما ببعض.. بغضه لليل لا يستطيع أن يحدّد قدره في قلبه... أذان الفجر أحب شيءٍ إليه.. بعد صلاة الفجر – فقط – يهدأ صدره وينقطع سعاله ويشعر، وكأنّ روحاً جديدة قد دبت فيه.

بعد صلاة الفجر – هذا اليوم – ليس ككلّ الأيام، صدره مثقل وكأنَّ غمامة سوداء تجثم عليه بكلّ ما بها مِن ماء، أو أن أحد أحجار المسجد القديم قد وضعت على صدره، ولا مزحزح لها... لا يستطيع أن يقترب من الطعام، عيناه يسكنها أرق ذو تاريخ في المنارة والهجوم.. أمدَّت له زوجه يدها بالطعام فردَّها خائبة.. ألحت عليه في أن يذهب للطبيب، ثم قامت لتأتي بصرة بها بعض النقود لتضعها في حِجره وقالت: هذا ما ادخرته من بيض الدجاجات إليك به لتذهب للطبيب، ولا أعتقد أننا سنحتاج إليه في أهم من ذلك.. أمسك الصُّرة وقد امتزج القلق والخوف في عينيه... أتراني مرهق إلى هذا الحد، أم أن هذه العجوز تخشى أن أتركها وحيدة في هذه الدنيا التي لا أحد لها فيها سواي.. لا مفر من الذهاب إلى الطبيب، لا حل بدونه.

ليس له علاقة في الماضي بالأطباء، فهو لا يذكر يوماً ذهب إلى فيه طبيب، لأنَّه قليلاً ما اشتكى من شيء.

المسافة بينه وبين البندر ليست بشاقة عليه أو على حماره.. أسدل على جسده النحيل جلبابه الأزرق الشائب برقعٍ مجهول اللون، وأدرج قدميه في شبشبٍ مترب لم يلبسه من زمن،

وأخرج حماره مقرباً إياه من المصطبة الطينية التي طالما جلس عليها أيام الصحة والشباب.

ركب حماره وشق طريقه بين الحقول يتذكر قصصه معها، وما كان يملأ شبابه من الحيوية والنشاط وجداله المرير الذي يشهد عليه الزمن؛ جداله مع الأرض كيما تغير وجهها الأسود إلى وجهٍ أخضر مملوء بالبشر والخير لأصحابها... لكم تمنى لو ملك شبراً بين هذه الحقول المتسعة على امتداد البصر... ينعى حظّه العاثر متسائلاً لما هو دون غيره حُرم من الأرض التي أحبها وأحبته، وكأنَّه الوحيد الذي لا يملك منها شيئاً... انتهى إلى طريقٍ مرصوف ومنه إلى شوارع المدينة العامرة بأهلها، والحركة الدائمة التي تجعله حانقاً على الريف وهدوئه، إنّه الآن فقط – يظنّ أنَّ هدوء الريف هو السبب الوحيد وراء مرضه.

وصل إلى العيادة كما وصفت له، وسأل رجلاً عن مكانٍ يربط فيه حماره، وأدله على المكن الذي يستخدم في مثل هذه الأحوال، ربطه وصعد الدرج وقد امتزج القلق والرَّجاء في صدره بفعل عبق المكان الذي لم يألفه، أشار له التمرجي إلى الكرسي الذي يجب أن يلزمه إلى أن يأتي دوره، جلس دون أن ينبس وعيناه تدوران في المكان تتفحصه بدقة، وكأنهما تبحثان عن نافذة يطل منها الأمل عليه.

غاب عن المكان بفكره قليلاً، ثم عاد على صوت نداء التمرجي يأمره بالنهوض ليأخذ دوره... قام متكاسلاً وعيناه ترنوان إلى باب غرفة الطبيب التي لم تعد أقل غموضاً لديه من القبر، ولج الباب وهو واجم لا يعقل الأمور من حوله.. أعجبه مظهر الطبيب الأنيق وثيابه المتألقة، وهدأت الأمواج التي تتلاطم بداخله... سلّم عليه الطبيب والبشاشة والبشر يفيضان من ملامح وجهه الوقور، وأمره بلطف أن يتمدَّد على سرير الفحص، ففعل ما أمره به دون أن يتلفظ بكلمة، فجاء إليه الطبيب وحصر عنه ثوبه حتى أبطيه، فحصه بالسماعة ثم ارتاب في الأمر فأمره

بالجلوس إلى جهاز فحص تليفزيوني ففعل.. تغيرَّت ملامح الطبيب بما يشيع القلق في نفسه، ثم افتعل الاتزان والهدوء وأمره بلطف بأنَّ يعدل من وضع ملابسه... جلس الطبيب على مكتبه وخط بروشتة أسماء بعض الأدوية، ومدّ له يده وقال: تحتاج فقط إلى الرَّاحة والدفء والاستعانة بهذه الأدوية التي كتبتها لك وستأتي بها من الصيدلية، على أن تزورني بعد ثلاثة أيام؛ لأن ثمة عملية، لابد وأن نجريها لك في أقرب وقت... نظر إلى لا شيء في وجه الطبيب ثم قال بعينين ملئوهما الرَّجاء وطلب الرَّحمة؛ كم تتكلف هذه العملية إلى جوار ما بهذه الروشتة؟ أتراه كثيراً؟

ندت عن الطبيب ضحكة ساخرة نطقت بها ملامح وجهه جميعاً، وقال: أمَّا الروشتة فبسيطة جداً؛ لا تزيد عن ثلاثين جنيهاً، لكن العملية قد تتكلف إجمالاً ما يقرب من عشرة آلاف فقال بهدوء واستسلام ودهشة: عشرة آلاف جنيه؟ فقال الطبيب: نعم رُبَّما أقل قليلاً أو أكثر قليلاً.

شكر الطبيب وتد حرج عنه قليلاً بخطوات مثقلة، وقد قبض بأصابعه العجفاء في غير نظام حتى تلامست وسمع صوت انضغاطها في بعضها ببعض، لتتراخى عنها أصابعه – أخيراً – لتسقط على أرضية الحجرة النظيفة في تحدٍ وإصرار، وتمتم في صوت مسموع للطبيب قائلاً: أعتقد أن لبان الدكر أكثر جدوى.

علقت عينا الطبيب بظهره، فما وقعت على شيء منه في طوله وعرضه إلا على عمامته الباهتة وقد نُسلت منها بعض خيوطها لتتدلى فى دعة ممزوجة بالذلّ، وجلبابَه وقد غلظت وفحشت خياطة حديثة في زيله القديم.

كره الطبيب مظهره في هروبه من غرفته، كما كره استسلامه وعجزه وحنق عليه من أعماق قلبه.

عاد إلى البيت وهو لا يعرف له حملاً عاد به مقابل حصيلة زوجته من بيض دجاجاتها، فلا علاج في يده، ولا جواب في رأسه، ولا مجرد كلمة تطمئن بها زوجته التائهة الخائفة من الغد.

في الصَّباح جلس متدثراً بلحافه المتهتك على مصطبته الطينية التي هي سريره هو زوجه ولم يتفرقا عنها في ليلة قط، وبعدما أمسك بكوب الينسون الذي أعدّته له، طرق الباب على غير عادة طارق، فتحت له زوجته ولم تعرفه فسألته عن هويته، فقال: أنا الدكتور حسين، جئت لأطمئن على صحة الحاج، لم يصدق أذنيه عندما سمع الاسم... أهو هو الطبيب؟ اعتدل في جلسته... دخل الطبيب إلى مخدعه وسلّم وابتسامته لا تفارقه، وظل واقفاً على الرغم من تكرار مضيفه لكلمات الترحيب المختلفة، ربَّما لأنه لم يجد المكان المناسب ليجلس فيه... شعرت زوجته بموقف الطبيب الحائر وعينيه التائتهين تبحثان عن موضع ليجلس فيه، فافترشت جلبابها لها على مصطبة مواجهة أكثر ارتفاعاً من الأخرى وطلبت منه الجلوس عليها.

جلس وصورة الحائط اللَّبن برطوبته مازالت عالقة في خياله، ولا تقل عنها سوءاً صورة ذلك الجلباب الذي افترتشه له....

رتَّب عواطفه وسأله بلطف عن صحته:

كيف صحتك الآن؟

بخير والحمد لله.

ولكنّي لا أرى أدوية إلى جوارك... ألم تأت بها؟

لا

ولما؟

أعتقد أنّ الأمر أهون من كلّ هذا.

إذاً ولماذا أتيتني؟

لأظمئن فقط.

وهل اطمئننت بعد؟

بالتأكيد

على ما؟

على قوتي وقوت زوجتي.

وصحتك؟

لا شيء بيدي

أطرق الطبيب حيناً ثم قال:

هل تملك أرضاً؟

لا

إذن ماذا كنت تعمل؟

خادماً لكل من يملك شبراً ويزرعه.

لا بأس ولكن يهمني أن أخبرك بضرورة الحضور لإجراء العملية في أقرب وقت.

لو أتيحت الفرصة فلن أتأخر، ولكنّي لا أتوقعها.

رمقه الطبيب – بعد ما وقف على قدميه – رمقة لم يتوقعها منه قط، وقال:

من يعرف له حقًّا ويتخاذل عن طلبه فهو غير جدير بالحياة.

هلاّ أخذت حقّ ضيافتك؟

وغير جديرٍ أيضاً بأن يضايفني.

ولىّ الطبيب مدبراً ولم يعقب، وكأنّما هو هارب من أهل عصور موغلة في القدم وعائد إلى عصره الذي يحياه... علّق نظره في سقف حجرته المترب، وأخذ في بطء يفكر في كلام الطبيب ولم يتجاوز التفكير في سرّ قدومه بعد إلاّ وانتزعته زوجه من تفكيره قائلة بصوت عال:

ما هذا يا رجل.

التفت إليها فجأة ولم ينطق بكلمة، فأمدت له يدها وبها حافظة نقود كبيرة قد برزت الأوراق المالية منها.

أمسك بها رغماً عنه، فانحطت بها قليلاً زراعه المتراخية... بيد أنّها أثقل كثيراً مما توقع.

ماذا ستفعل؟

سأعيدها لصاحبها.

لا أعتقد أنّها سقطت منه دون علمه، فهي موضوعة باليد وضعاً.

والله لقد احترت في أمر هذا الرجل.

فرح الطبيب لمرآه وابتسم ابتسامة أنارت وجهه، وقام وحيّاه بحرارة لم يبادله إياها.

ما كنت أعلم أنّ الفرصة ستواتيك بهذه السرعة.

ما جئت للعلاج، وإنّما لأردَّ أمانة لصاحبها.

تغير وجه الطبيب وسكن سخطه عليه كلّ أركان جوفه، وقال في حزمٍ وشدة:

أي شيءٍ تقصد.

الأموال التي تركتها عندي.

أنا لا أعطف على أحد، كما أنّك لا يجب أن تنتظر عطف أحد.

إذاً ماذا كنت تقصد.

ربّما كنتُ فريسة لظروف ما.

وربما كنتُ أنا أيضاً فريسة.

أنت بالفعل فريسة وإن افترست، وإن لم تفترس الآن لن تحيا.

ألقى الحافظة بثقلها على المكتب وقال في هدوء.

لا أعتقد أن الحمار قد يصبح أسداً.

وخرج من الغرفة يجر ذيول مرضه العتيق، ونظر الطبيب عالق بذيل ثوبه المشوه.

فى الأتـوبيــس

قريتانا كرجلين واقفين متقابلين على شاطئى ترعة كبيرة يتحاوران ، ويتبادلان الفكر والهمس والكلام أغلب أهل قريتها على النصرانية ، وأغلب أهل قريتي على الإسلام.غير أنها سكنت خيالي وقلبى ولم تبرحهما ..عشقتها عشقاً لم يعشقه رجل لامرأة على مر العصور . لكم كنت أهزأ بقصص الحب التاريخية إلى جوار تلك القصة المنسوجة بقلبي ، سيطرت على

كل أركان قلبي فلم تعد به ثغرة لغيرها ، لا لأبى ولا لأمي ،و إن كنت عالماً من أن الحبين مختلفان ، ولكن ليس ثمة وقت لأفكر في غيرها .

كنت واثقاً أثناء دراستنا معاً في المدرسة الابتدائية ، والإعدادية من أنها تعرفني جيداً ، فالجميع يعرفونني ، وكيف لا وأنا النجم الساطع في سمائهم البسيطة .

نظراتها إلى – كانت ومازالت- تحمل دلالات أحتار فى أمرها . ولكني أحاول تفسيرها بما فى نفسى ... فمرة أراها تقولان فى تحد وجرأة : أحبك بكل كيانى ولن أكون لأحد غيرك

وأرهما فى أخرى تواسيانى وتطلبان منى الانتظار فى صبر إلى أن يأتي الفرج .

لكم قالت لى عيناها من الكلمات ما كنت أرجو أن تقول ، لأرتفع بنظري بعدها لأعلقه في جوف السماء ثم أنحط به سريعا فى خجل من قوة غيبية ماثلة بقلبى.. تمنيت كثيرا أن أذاكر لها ... لم يكن بخيالى من مادة أذاكرها لها سوى اللغة العربية ... لماذا اللغة العربية دون غيرها ألست مجتهدا فيما سواها .....بيد أنها حاجة فى قلبي ما كنت لأفصلها لنفسى جيدا فى تلك الاونة.

صارت حلمى ولا حلم لى سواها،حلمى فقط هو أن استحوذ عليها باى طريقة.

يبدو أن العناية الإلهية أرادت لى عدم المروق، لذا جاءت دراستي للشرع بامر والدى لتثقل قلبى وكيلا يقال فى يوم من الأيام أن ابن داعية المحافظة الواعد هرب مع غانية نصرانية ..... بدأ شيء آخر غير حبها ينمو فى قلبى ويتضخم فى سرعة مذهلة ...قلقت كثير قدر ما اطمئننت بهذا الأمر.

رأيت الكثيرات غيرها ، وكلهن عاجزات عن مصارعتها لاحتلال تلك المساحة التى احتلتها بقلبى ، رغم معاونتى لبعضهن فمازالت هى الساكنة فى تلك الأعماق البعيدة التى

تتخفى بها من أصابعى ... أتمنى ان أراها فأنتزعها منها وألقى بها فى أبعد نقطة على سطح الأرض .....لأعود وأبكى عليها فى حسرة وأسى .

ولكني استقريت على أن أ ستحوذ عليها بما لا يغضب أحدا ، وألا أغضب ربى أولا ....

فلم يعد خوفى من ربى جزءا من خوفى من أبى كما كان من قبل .. ولكنة الحب أيضا ....حب قائم على تلك السطور التى أقرأها وتنفذ الى شغاف قلبى ...لم يعد يقلقنى أنى أحب هذه دون غيرها، فالأمر بخيالى يسير جدا ، لا احتاج فقط كيما أستحوذ عليها إلا إلى الانفراد بها ...الانفراد بها وحسب... وجها لوجه..عقلا لعقل ...لسانا للسان .. عينين عاطشتين لعينين هما مورداى اللذان لا ينضبان أبدا...لكم أحببت عينيها تحديدا ....ورسمتهما بخيالى على جدار حجرتى كيما تنيران لى ظلام الحجرة و ظلام نفسى .

هانحن الان وجه لوجه ننتظر الاتوبيس ، ونتسلى بذلك الحديث القديم بين عيوننا الآسفة على أشهر الأجازات .

يا لك من فراشة يزداد حبها فى قلبى يوما بعد يوم ... هل ستصدقينى إذا ما قلت لك إنك اليوم أكثر رقة وجمالا من المرات السابقة التى كنت أراك فيها ..قلبى يقول لى إنك تحسين بنفس الإحساس ناحيتى .. إذن فنحن متصلان بقوة خفية .. يا للقوى الخفية التى تجمعنا وتفرقنا حسب هواها وكأننا دمى تلعب بها.. ولكنى أحب قوتى الخفية تلك التى أنتسب إليها وسأظل إلى الأبد وإن فقدتك يا حبيبتي.

بعدما تعمقت فى دراستي التى أحببتها حبا جما وامتلكت أدوات الإبلاغ والتوصيل استقر فكرى على الخطة التى استحوذت بها عليك يا حبيبتى... لكم أنا واثق من نجاحها وأرانا فى المستقبل القريب نموذجا ناجحا لزوجين مخلصين ، ومثلا رائعا للأسرة

التى يجب أن تكون ... وسأنفرد بك كل يوم.. بل لن نفترق ولو لحظه واحده.. فلربما نعمل سويا.. وما شئ على الله ببعيد . ها قد جاء الأتوبيس.. وليتك ياحبيبتى تبادرين وتجلسين إلى جوارى إذا ما جلست وتركت الكرسى الذى بجورای خالياً لك ولا تظنين أبداً أنه لغيرك .

سأجلس إلى جوار الشباك وسأترك المقعد لك ، وما عليك إلا أن تتعللي بأن عينيك لا ترى غير هذا الذى بجوارى .. آه ترى ماذا سأقول لك فى البداية ، وكيف سأستدرجك إلى حيث أردت كيما تنجح خطتى .. لا باس فكل هذا هين المهم أنك لا تخطئين المقعد الخالى.. تمنى لو قام وصفعها على وجهها صفعة تدوى فى صدور الراكبين ، وتفسد جمالها المغرور ويصرخ فيها أن تجاهلته ، وجلست فى ركن بعيد .. على الأقل كان يجب أن تجلس فى المقعد المقابل ، كيلا لا نثير شكوك الراكبين ونتمكن من حديث العيون اللذيذ على الأقل لنسلى طريقنا..

لماذا لم تنفذى ما اتفقت عليه روحانا ، ألم تخبرك قوتك الغيبية.. يالها من خائنه أم أن عينيك الجميلتين قد انكرتا الرسالة وزيفتها..

ها هو الأتوبيس ازدحم ، ولم تعد ثمة أمكنة خالية حتى ذلك الذي تركت لك . بل إن هناك واقفين بالطرقة.. ولن أقوم لأحد منهم وإن كان قعيداً.. ومن الباب الخلفي بالقرب من مقعده صعد أبو شنودة وزوجته وقد أمسكت بيدها مظروفاً به بعض الأشعة وظاهر على زوجها الإعياء الشديد... يالمراتك من جميلة هى الأخرى يأبا شنودة ، ولكن لا تتحايل فلن أقف لأجلسك وإياها لو مت ... أذن فابحث عن عطوف غيري ليتنازل لك عن مقعد ، وإن كنت واثقا من كونك لن تجده.. فأغلب الأتوبيس من مسلمي قريتنا.. ولا أظنك ترجو أكثر من أن يكفيك الله شر ما فى قلوبهم..

لو كنت أعلم أنكما ستستقران فى النهاية عند مقعد حبيبتي جبرا ، للحشو المستمر لطرقة الأتوبيس لا جلستكما ووقفت بدلا منكم ...مالك تنظرين إليهما في حنان ورقة يا حبيبتي ...ألا تعلمين أننى أولى بهذه النظرات من أبى شنودة وزوجته.. وتقفين لتجلسينه مكانك أيضا.. يا لك من خائنه..أعاشقة أنت لهذا المريض ولا أدري أم أنك تتصنعين العطف والرحمة أمامي ليزداد حبي لك.. أرجو أن تكملي الجميل وتتصنعين أي حجة وتأتين إلى مقعدي ، فإما أن نجلس سويا ، وإما أن نقف سوياً... أإلى هذا الحد تندمجين في الحديث مع أم شنودة.. لكم أتمنى إن أرى فيك يوماً يشفى صدري يا حبيبتي العنيدة .

ازداد الزحام وإنضغاط الناس بالطرقة ، واقترب شاب مسلم من محبوبته فتوجس قلبه خيفة ، وبدا شيخ أجش الصوت في قراءة القرآن في محاولات عنيدة لأن يحسن صوته ، يتوغل الأتوبيس في طريقه الصامت وكأنه يعبر خطراً... ويرتفع صوت القارئ ذي الصوت الأجش ، ويتمكن ذلك المتشرد من إحكام الحلقة حول الزهرة التي حان وقت قطفها... بدأ الخوف يظهر في عينيها الجميلين وكأنه أبدلها عينين أخريين غير اللتين كان يعرفهما...

يا لك من نذل خسيس ، لا عهد لك ولا ذمه .. ألا تعلم أن هذه الزهرة الجميلة لي .. ويا لعينيك من سافرتين لا تعرفان حياءً أو خجلاً... ويرتفع صوت القارئ ذى الصوت الأجش .. ألا تستحي من ذلك الصوت المتردد في أركاننا جميعاً.. ألا تجد مسلمة غيرها.

تتملص منه في حجج واهية ، والحقيقة ساطعة في أعين كل من رمق هذا التيس ولو مرة واحدة ، ولكنهم يتصنعون العماء ، وتحوط عليها أم شنودة فى حركة رجولية وكأنها زوج لها ، بددت ام شنودة وهو يرقب الأمر من بعيد رجلا من ثياب امرأة ، ولكن التيس ما زال يراها امرأة جميلة فالتهم جسدها المذعور

تحت ثوبها الريف الأنيق .. بل وأراد أن يكافئها على ما فعلت .. تضاربت المعاني التي تحملها النظرات في تلك الأجواء العفنة .. فلا غير القلق والحيرة والعذاب ، وبصيص باهت يطلب الإغاثة .

لابد أن أصنع حداً لهذا اللغة أهؤلاء من يعبِّرون عن قوتنا الغيبية الجميلة التي يطفح جمالها من سطور كتبي.

ترك مقعده ونزل طرقة الأتوبيس .. ومازال الصوت الأجش يتردد في أركان المكان .. ومازال التيس يجتهد ، وذو الصوت الأجش يتعمد أن يرقع صوته لابد أنه وجد بغيته التي يريد أن يسمعها الجميع (لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم) . مهلا يا سيدنا ألا ترى ما أرى .. ألا تقل شيئا آخر .. واسود المكان كله في نظره ، وكأن التيس قد تصنَّع فساداً للأنوار كيلا يراه أحد في أوج شهوته ، ويصل الأتوبيس مع وصول التيس حيث أراد .. وتهبط الجميلتان ويتبعهما أبو شنودة وكأنهم يرون الدنيا لأول مرة ..

ويهبط هو السلم وهو يحاول أن يعثر على ومضة ولو كاذبة بين أركان قلبه الحائر.

٢٠/ ١/ ٢٠٠٤م

أتربة المدينة

منذ مرحلة مبكرة في حياتي وأغلب من يعرفونني ينادونني بالفيلسوف أولهم أبي وأمي ، لا أدري هل كان أخي الأكبر الذي مات صغيراً يراني كذلك أم لا . ولأشد ما أشعر بالفخر عندما يقولها لي أحد ، لاسيما أبي ؛ فهو في نظري لا يتكلم لغواً أو عبثاً . وبقدر ما كنت أفرح لهذا الاسم الغامض كنت أتجول بفكري فيه وفي نفسى باحثاً عن العلاقة بين شخصى وهذا الاسم .

ولما تقدم بى العمر قليلاً من الطفولة وجادت الأيام علىّ ببعض ما يتناثر فيها من معرفة رأيت في نفسي الملاحظ المثالى والفطن لما يدور حولى وبدأت أشعر بالفخر لما أوثرت به من أسرار هذا الكون ، وكنت أزداد ثقة بنفسى عندما تتكشف لى بعض الأشياء التي تغمض علي غيرى – هذا في نظرى – وربما هى فى الحقيقة غير ما أرى ، لكنى كنت مقتنعاً تمام الاقتناع أن ما أراه هو الحق ولا حق غيره ، وكانت رؤيتى لصلاح ابن عمى مرزوق الحانوتى مع هالة ابنة خالتى (أم سيد) في حوش عائلة سلطان ومدافنهم وهما يمارسان الحب دون أن يراهما أحد غيري من الأسباب التى جعلتنى أقتنع بكونى فيلسوفا كما يقولون ، ولما كنت ابنا لحانوتى أيضاً مثل

صلاح تغاضيت عن الأمر وكأن شيئاً لم يكن . وهالة هذه ليست قريبة لى إنما هي ابنة جارتنا وحسب ، وربما لو كنت أعلم أنها ستلد بنتاً بعد ذلك بعدة أشهر وأنها ستصبح حديث كل منطقتنا نحن "التُربيَة" وتموت أمها كمداً عليها لتكلمت أو فعلت شيئاً ، وإن كنت غير واثق فى قدرتى علي ذلك . وبدت الأيام أمامى لا تتحرك عندما رأيت هالة بعد ذلك تربى أبنتها ؛ ابنة السفاح وتكدح من أجلها تماماً كما كانت أمها تفعل معها من قبل ، ولست أدرى هل هى مثل أبنتها في الأصل أم لا ؟ فكل ما أعرفه عنها – من أبى وأمى – أن أباها طلق أمها بعد ولادتها مباشرة ، ومنذ ذلك الحين أصبحت أمها جارة لنا في مساكننا بمقابر الإمام الشافعى ، وهالة ليس لها أحد فى هذه الدنيا – كما عرفت – حتي أبوها – الذى يفترض أن يكون لها أباً – لا أذكر أنه سأل عنها ذات يوم ، وليس لها أخ أو أخت ، وإنما كانوا ينادون أمها (بأم سيد) من باب التبشير والتفاؤل وغضاً للنظر عن ابنتها التي لا تقل أو تختلف عن عورتها فى مجتمع دعامته الرجال .

كان أبى يفخر بى لتفوقى وأخلاقى ، وكان دائماً يقول لأمى : إن الله عوضنا به عن أخيه فهو عندى بعشرة أبناء ... في البداية كان هو الذى يوقظنى لصلاة الفجر ، وأحياناً ينبهنى للصلوات الأخرى التى كنت أشرد عنها فى مذاكرتى ، وأصبحت بعد ذلك – بعد ما دخلت الجامعة – أنا الذى أوقظه وأسخن له المياه في الشتاء .

لا أذكر أننى تخلفت عن صلاة قط إلا فى ذلك اليوم الذى خرجت فيه لصلاة العصر وكنت قد اعتدت ألا أخرج إلا قبل الإقامة بقليل ، وعندما أتيت إلى باب الحوش الذى تسكنه هالة سمعت صوتها تنادى عليَ وكأنها تنصب لى كميناً ، ورغم كونى مثقل الوجدان طاهر النفس ، تائها فى ملكوت ربى وعالمه شأنى دائماً عندما أخرج للصلاة إلا أننى اضطررت

تحت إلحاح صوتها لأن ألتفت إليها ، وجدتها في حاجة لأن أحمل عليها زهورها التى تخرج بها إلى الميدان لتبيعها لزائرى الموتي ، ولا أدرى هل هى حقاً ثقيلة إلى هذا الحد أم لا ؟ ، فلم يحصل لي الشرف بأن أحملها عليها كما أرادت ... يبدو أنها كانت فى حاجة لى فيما هو أكبر من ذلك ، فقد كانت فى حاجة إلى الرجل ؛ الرجل وحسب ! أي رجل . ويبدو أيضاً أننى كنت أضعف من أن أقاوم وأحافظ على وضوئى وطهارتى التى شعرت أنها تنقصنى حتى بعد ذلك بسنين رغم كثرة وضوئى .

كنت بقدر ما أتهيب المقابر أكرهها لأنها كانت سكناً لنا وبقدر ما كانت حقلاً خصباً لفلسفاتى أيضاً ... كنت أتعجب كثيراً لأن تجمع هذه المقابر بين عقابنا ومعاصينا في آن واحد ، فها أنا ذا أغفو إلى هالة رغم أنفى ضارباً بأخلاقى والتزامى – علي الأقل فى نظر الناس – وبفلسفتى وعلمى من أسرار الكون الكثير – فى نظر نفسى – عرض الحائط ، ومن قبل كان صلاح ابن عمى مرزوق الذى داوم على جلب الفتيات إلى المقابر بعد ذلك حتى بعد زواجه .

حتي دنو أبى من أمى ليلاً والذى كنت أراه مرغماً، كان فى نظرى أيضا مفارقة ومن أسرار هذه البيوت الأخروية ؛ فمكان الإنجاب والتسبب فيه هو نفسه مكان احتضان الموتي وإغلاق سجلاتهم فى الحياة . فى ليلة سمعت أمى تحدث أبى وتخبره عن قدوم شرطة الآداب إلي المقابر وإمساكها ببعض رواد الحرام والبغايا ، فرد عليها أبى قائلاً بأن أبناء الحرام كثروا هذه الأيام ، ولما ألحت عليه فى القول سائلة إياه : تراهم ماذا كانوا يفعلون ؟ زجرها أبى وأمرها أن تنام – وقد كانا فى فراش نومهما ، ولم أسمع لهما صوتاً بعدها ، وبقيت أنا حائراً أفكر فى كلامهما سائلاً نفسى من هؤلاء أبناء الحرام ؟ وهل هم يختلفون عنا كثيراً ؟ وهل نحن حقاً غيرهم ؟ وأنا خصوصاً ؟ يبدو أنى كنت أصغر من أن أعى تساؤلاتى جيداً .

كثيراً ما كنت أرى أبى وهو يكفن الموتي ويواريهم التراب ، لأراهم بعد أشهر قليلة تراباً كالتراب الذى دفنوا فيه من قبل ولا فرق .

طعن أبى وأمى فى السن إلى الحد الذى جعلنى مشفقاً عليهما من نفس المصير . بيد أن الخوف والإشفاق تسرباً إلى نفسى أيضاً ، وكنت كلما رأيتهما في ضعف الشيخوخة أحنو عليهما وأجتهد في العبادة .

وعندما دخلت الجامعة وأصبحت أسير فى طرقات المدينة وشوارعها المزدحمة كثيراً ، كنت أرى البنات وهن يلبسن البنطلونات الضيقة ، وشعورهن لا ستر عليها ، ومنها المصبوغ ومنها الطبيعى ، كنت أحنق عليهن من قلبى ، ثم أعود لأشفق عليهن من أعماق قلبى أيضاً ، وكذا الأمر عندما كنت أرى شاباً فى مثل حالتهن تائهاً ، يدخن ، لا يبالى باجتهاد أو تفوق – فهم جميعاً فى نظرى مسلوبو العقل ، مجرد أجسام مصيرها إلى يد أبى وعمى مرزوق لتكفنهم فيصيروا أتربة تطيرها الرياح الواهنة .

ولم يكن الساجدون فى صفوف فى نظرى عندما أراهم – إذا أتيت الصلاة متأخراً – إلا أتربة تحاول أن تثبت نفسها أمام الرياح ، وكنت أعجب كثيراً عندما أرى شاباً يشاكس فتاة مادحاً شعرها لنفسه أو لزميل له أو مادحاً أردافها أو أثداءها فى وقاحة وجرأة وكنت استحضر حينها صورة هذه الممدوحات والدود ينخر فيها ، وقد رأيتها بالفعل أحياناً في مقابرنا .

لم تأت دراستى للفلسفة عبثاً وقد كانت المودة بينى وبينها جمة ، وكذا تفوقى فيها . عندما علمت بأن الكلية ستبقينى معيداً بها أشفقت على أبى وأمى أن يلقيا حتفهما من الفرحة ، فينقلبا إلى ضحايا الديدان ، ولكن الله سلم ، وأراد لهما أن يريانى مدرسا فى الجامعة ، وعلا صيتهما فى المنطقة جميعاً بين الأمى والمثقف سواء، حتي فاقا مرشحى الانتخابات البرلمانية أجمع .

كنت سعيداً بذلك وأعده أول منجزاتى لهما ، وإن لم أنجز لهما شيئاً أخر سوى بعض النقود التى كنت ألقى بها لهما بعدما رفض أبى الانتقال إلى مسكن محترم وإسدال الستار على حياته السابقة .

في محاضراتى كان المدرج يزدحم بالطلاب ، ومازالوا رغم الحركة فيهم وبينهم فى نظرى أتربة المستقبل . عندما يقف طالب ليناقشى فى شىء أو يسألنى سؤالاً كنت أتعجب أليس من المفروض أنه تراب جامد لا حياة فيه ؟ كان تلاميذى دائماً يتراءون فى نظرى مجردين من ملابسهم وإن كانوا مستورين ومجردين من أشكالهم وخصوصياتهم المظهرية ، فهم قطع طوب متشابهة تطحن بالموت على يد أبى وعمى مرزوق .

بعدما نقلت زوجتى إلى المستشفى لتلد بها ابننا الأول ، جاءنى اتصال تليفونى من صلاح ابن عمى مرزوق يخبرنى بأن أبى قد توفى داهمنى الحزن ولم أدر ماذا أقول ، ولكنى أخطأت وقلت : وأمى هل مازالت حية أم ماتت ؟! يبدو أنه دهش فلم يجبنى بشىء .

كان أبى قد أوصى بأن نعيد جثمانه إلى بلدنا بالصعيد ، ولا أدرى ما السر فى ذلك ، أليست كلها أتربة تواريا بأي حال ؟ غير أنى لم أجد مندوحة عن تنفيذ وصيته . عدنا أنا وأبى إلى بلدنا التى لم أدخلها من قبل ، هو فى كفنه وأنا فى سيارتى .

كان أهل البلد وراء جثمانه كالأمواج تتدافق على المقابر ، وبينما أنا وسط هذه الأمواج غارق فى تأملاتى إذا بشيخ ضارب فى السن يقول – كأنه يصرخ في أذنى : لا حول ولا قوة إلا بالله ... كلنا لها .

١٩/ ٢/ ٢٠٠٢م

ليلة ميلاد عجوز

نفحات من الماضى الجميل تتطاير إلى خياله كثيراً هذه الأيام .. ترى ما الأمر ؟ ما الأسباب وراء ذلك . منذ كثير وهذا الخيال لا شئ فيه سوى الأوراق المحبّرة ، والوجوه الجامدة المتطلعة ورنين عجلات الأيام وطنينها ... أطالع محبّرات ، وأحبر ناصعات ؛ فيتساوى الجميع ... أيها أفضل ؟ الله أعلم .

يتسائل : ألهذا العنصر الجديد الذي دخل حياتي يد لاستقطاب الماضى ؟ .. لا أظن أن خلاف زوجتي وشجارها يرقي إلى هذه الدرجة فيكون سبباً فى شئ جميل ، ولو مجرد أطياف .. كما أن هناك أشياء كثيرة طرأت على حياتى غير شجارها ... قوات تحتل وقد ظننا الاحتلال من الذكريات وركائز القول عما مضى وحسب ... إعجاب مختلط بحنق ... يأس ممتزج برجاء ... جمال الماضي يصارع أنات الحاضر ؛ أيهما يحتل خيالي ؟ أيهما يفوز بمساحة أكبر منه ؟ ... تتساوي القوّتان.. حروب التاريخ اتخذت من عقلي ساحة لها ... سأمتدح قوات الاحتلال غداً فى المحاضرة لا أستطيع أن أخفي إعجابي بذكائها ... فقد حققت إعجازاً ... سأرضي زوجتي وأطيب خاطرها وأرضخ لاحتلالها ... وسأعاود النظر فى كل ما درست ودرّست؛ ها قد اختلت القوانين .. مخدوعون أولئك الذين رسخت الباطل فى خيالهم بمهارة ... ياليتني ما درست قبل هذا.. يا ليتنى اصطبرت لا تعلم من الواقع .. ضيعت العمر فى محبّرات خادعة .

تاتيه نسائم الماضي : لكم كنت محبوبا فى العائلة ، الجميع يحبونني ، وكأنه لا صغير غيري ... نعم قد كان الأمر كذلك بالفعل ... خالاتي لكم أحممني فى الطشت أمام الفرن الطيني العتيق بلا حاجة للاستحمام ....خالتي " نبيلة " تحديدا ما رأتنى إلاّ ركضت خلفنى بدعوى الاستحمام ... أصبح الاستحمام مخوفي ومسرح لعبي ... لكم بللت ملابسها برشاش الماء ... ضحكاتها كانت تنير وجهها ... شابة يافعة يتطلع إليها شباب القرية ورجالها جميعاً ... هي أكثر خالاتي شبهاً بأمي رحمة الله عليها ... كنت وحيدها ، ولم ترنى ... كيف ترينني اليوم يا أمي ... هل تشفقين علىّ ؟ أم تفرحين بي لكم أنا في أشد الحاجة إليك ... خطا بخطوات سريعة إلى حجرة نومه ... ركضت كفتاه بأناملها المتحفزة إلى الدولاب ... بيد أنها تعرف طريقها جيداً ... ارتاحت عيناه على وجنتى أمه فى صورة باهتة ... ووثبتا إلى عينيها السمراوين ... ملامح فلاحة مصرية بريئة ...عيناها قطعة من نور الريف الذي تهفو نفسي إليه ... زقزقة العصافير فى الصباح قد أمتزجت بملامحها ... تراها كانت تسمعها لحظة التصوير ... عقلي لا يريد أن يقتنع بغير ذلك ... هذا مما اعتنقه قديماً ولن يغيره .

ما من علاقة بين ملامحك يا أمي وملامح زوجتي ... جلس على السرير بعد ما ملت ساقاه الوقوف ، ويداه قابضتان على الصورة ... انتهي العالم جميعاً لم يعد به غيره وأمه فنى فيها وظن فناءها فيه..كنت وحيدها وكنت سبب فنائها .. تراها تحبنى ؟.. أنا أيضا يا أمي لا أنجب .. فنحن خيطان مقطوعان .. أو خيط واحد مقطوع .. أنا وأنت دولة مثالية قُتل كل حكامها ، مثل تلك الدولة التي ماتت بين صفحات كتبي .

تصفح فى تحفز نسخة منقحة لذكرياته الجميلة فى ذلك العالم السحيق ، استمتع بصفحات كثيرة ، وولدت صفحات أخرى لم يكن قد كتبها ... وفى لحظة غادرة فى ليل المدينة المزدحمة

التي لا يملك فيها سوي هذه الصورة ، ونسخة ذكرياته غرق البدن المتعب فى نومه فى صفحة ليلية من صفحات كتابه ... هكذا النوم يأتي فى أوقات سعيدة ويفر فى أشد لحظات الحاجة إليه ..

تلفحت البناية بصرير حانق ... تكورت رجلاه والتفيا حول بعضهما لتتفيا البرد ورأسه مغروس فى وسادة وثيرة ... رأس تخلى عنه شعره فى وقت البرد ... حتى ما بقى منه فهو كقطعه ثلج جاءت فى غير أوانها .

عبثت يد الخادمة وعدلت الأوضاع ..دفيء رأسه فتسربت منه الأحلام تمتاح من نسخته المنقحة.. لم تعد منقحة .. دخلتها أكاذيب وخرافات أحداث دخيلة على تاريخه مطاردات .. قهقهات تنير ظلام شوارع ضيقة بيوتها بسيطة .. جداول يجرى بها ماء رائق . تبتهج ساقاه بالقفز من فوقه دون أن تسقط به شيئا يعكره .. تنبت الجداول بالماء الرائق على سطح الأرض .. يسابق نبتها قفزا .. قبلات ساخنة على خذه اللامع ملامح بريئة يألفها تترائى له ما بين النور بضحكاتها وبين التضرع بشفاه ممطوطة .. مشاجرة فى المطبخ بين زوجته والخادمة .. تمسك كل منهما بشعر الأخرى ... تمسحان أرضية المطبخ .. يتدخل لفض النزاع .. يقف إلى جانب الخادمة .. تشعل زوجته النار في نفسها يفتش مع الخادمة في الرماد عنها .. ينهضان وقد أمسك بيدها ويدخلان مكانا تحفه زهور متعددة الألوان .. اختفي بها عن عيون الأزهار .. ينزع منديها الريفي ... يعبث بخصلتيها القصيرين

.. يشعر برغبة فى العنف .. صراخات طفل تقلقة .. يأمر فلا يجاب فيهب من نومه .

صباح يبدأ بالتساؤلات .. تساؤلات تزحف كالفئران الجائعة فى جرن قريتنا .. تنبش فى عقله .. كيف كنت قبل النوم ؟ .. تعمل الذاكرة كعجلة سيارته فى حفرة طينية .. كيف نجوت من البرد

؟ .. يتوقع كل شئ ، إلا ان تكون زوجته المنقذ .. مبال الجو اليوم غريباً ، لم أعرفه يتلفت من الفئران فيصطدم بكبيرها ... إذن كيف أبدأ يومي ؟.. حتى هذا لا يجد له جاوباً .. قرر فى تحد لكل الفئران أن يفعل ما تهواه نفسه دون تقيد بشئ .

استعد الخروج بعد حمام روتيني تقليدى دون ذلك الذي تهفو نفسه إليه ، وارتدي ملابس الخروج ، كل ذلك وهو يحاول تجميع ما تفتت من أحداث ليلة أمس .. تذكر بعض الأشياء دون بعض .. نظر في ساعته كآخر عمل يمكن القيام به داخل البيت .. مازال الوقت مناسباً ... كان لابد وأن يغير مساره التقليدي : من البيت إلي الجامعة تحت ضغط من قوي مجهولة المصدر .. قرر في حزم أن يذهب إلي أقرب أرض مزروعة خارج القاهرة ... يريد أن يري ذلك الطفل الكامن بين جوانحه ، ويهدهده ، ويقضي حوائجه ويرضيه .

بدأ الزحام يقل تدريجياً حتي انتهي .. وبدأت رحلة العينين : تتسلقان النخيل ، فتجلبا الألم بشوكه ، وتسابقان الخضرة فى احتضانها للمساحات الواسعة فتجلبا الإرهاق وذبحة الصدر ، وإن ارتاح البال وأطمئن القلب .

عاش كما أراد ، وكما تمني أن يعيش دون زجر أو لوم أو اتهام .. ولكنها ساعات قليلة ... المهم أني استطعت النسيان . قبل أن أعود ينقصني شيء واحد ، ولابد منه كي تتم الفرحة وادلل علي حريتي ، أن انتزع حذائي وأخرج من السيارة وأركض فوق الزرع حتي تدمي قدماي ، أو أسقط علي الأرض .. فها هو البرسيم مناسباً دون غيره.. ولكن الجو شديد البرودة والبرسيم لا شك يغمره الندي .. مادمت قد استمتعت بالرؤية فكفي .. ولكن لابد من علة لأن أجعل الخادمة تغسل قدمي وتدلكهما بالماء والملح .. وهنا يجب الاعتراف بجنوني .

قرر العودة مهزوماً أو متنازلاً عن بعض رغباته ، مقابل ألا يبيت في مستشفي للمجانين .
وضع المفتاح بالباب دون أن يفتح ، وأخذ يراجع قراراته .. أأدخل أم أهيم في الدنيا؟، ولا أعود إلا للنوم أخر الليل .. ما الذي ينقصني وهو موجود بهذا البيت ، لاشيء غير ما يهمّ ويحزن .. ولكني لست معتاداً علي هذا النظام الذي بلا نظام .. وما أشد كرهي للعشوائية والفوضى .. ضغطت أصابعه علي المفتاح ، فإذا به علي مشارف عالم جديد لابد وأن يستكشف أجواءه .. قامت الخادمة إليه وهي تفتعل الحزن ، وربما حزينة تزف إليه خبر ترك زوجته البيت .. لم يجبها بشيء يخبر عن مكنون صدره .. وألقى بجسده علي أقرب مقعد منه ... وصف لها ذلك الطشت الريفي وسألها إن كان بإمكانها أن تأتي به .. أتت به كما وصفه ، ولكنه مجلو جديد ذو لمعان .. لا بأس سأحاول.. أخبرها بما في صدره .. أعدت له الحمام أو الطشت ... ألقي نظرة ... لا يروقه منظر السيراميك والبانيو وغيرهما مما ينافي .. لا بأس سأحاول ... ألقى بملابسه تحت قدميه في عشوائية متعمداً .. تضاريس جسمه لها كلمة في هزله .. لا بأس سأحاول .. جلس في الطشت جلسته القديمة .. سعه الطشت تضيف عن جسده بعض الشيء وتقول كلمتها في هزله .. لا بأس سأحاول .. أغمض عينيه في تحد لكل ما يعارض مخططه من موجودات المكان .. آه هذا هو الإحساس الذي أبحث عنه من سنين طوال ... سأسكب الماء علي جسدي وأنا مغمض عينيَ.. آه لو فقدت البصر لاكتسبت مزيداً من السعادة والراحة .. تتطاير ذاكرته في عتمتها إلي الماضي من أجل المقارنة .. دون تدقيق يقارن .. عشقت عيناه الراحة وكأنها ولدت لا تعمل .. ينقصنى شيء واحد .. ترامت إلي أذنه خطوات رقيقة ... لن أفسد سعادتي وأفتح عينيَ من أجل هذه الخطوات سواء أكان صاحبها من أظن أو غيره .. أخذ في تحد

يسكب الماء من الكوب علي جسده ... جلست صاحبة الخطوات حيث تمنى ، وإذا بالصابونة حائلاً بين كفها وجسده ... تحركت اليد حيث تمني ، فأحس أنه ذلك الطفل القابع في أعماق ذاكرته ويأبى أن يمد له يده .

٢٥/ ٣/ ٢٠٠٥م

مدافن عائلة سمكة

ما أجمل وأروع موقعها ، يا لها من تحفة لم ولن أظفر بمثلها في حياتي . لو لم تكن في حياتي مثل هذه الفيلا لما كانت ذات قيمة . هواؤها نسيم في كل أوان.. أوراق الشجر تصنيع من تربتها سجادة ضاحكة إذا ما طرقتها الأقدام .. أود لو أن أخلع حذائي وأركض بأقصى سرعتي في كل ناحية منها .

أشجارها لا أعرف تاريخها ... لا أعرف من غرسها ... لو رايته لكافأته ... لا أعرف إلا ظلها الصامت الأليف الذي ينساب بين حنايا النفس ويتمكن منها كحلم يقظة جميل . ديكورها بين الأمس والغد ، لا هو بالقديم المفارق لعصره ، ولا بالمبالغ في الحداثة والتجديد ، ينم عن الأصالة وعراقة المالك ، ألوانها هادئة ذات قوة مدفونة ، لكأنما هي الشباب بقوته الصامتة .

أتمني – فقط – أن لو كانت متحركة كيلا تغيب عن وعيي ولو للحظة واحدة .

شيء آخر ينقصها ، يتلفت من فكري ، لابد أن أبحث عن اللبنة الناقصة ، لأشد ما اكره النقص والعجز ، فكلاهما موصل

للأخر .... آه إنه الشبب الذي ينقصها .... هل من سبيل لي لاستعادته ... ما كنت أحسب الأمر صعباً هكذا .

يا ويح نفسي إذ تروم سعادة في رفض شيب قد تمكن عيشه

تبكي شباباً شاهقاً ومزركشاً مهما تكاثر بغيه أو فحشه

دعني من هذه العادة الذميمة يجب فقط أن أسد هذه الفجوة، أفكر في حل بدلاً من أشعر بغير جدوي . ما الذي استفيده من هذا الشعر المكتوم ، الذي أنا دائماً عاجز عن إخراجه .

أنا هكذا دائماً .. أنظم في سري ولا أحد يسمعني .. يا لها من عادة ذميمة ، ما أسعدني لو تخلصت منها .....

آه كل شيء – حقًّا- له حل .... ما ينقص هذا الجمال في حياتي هو الشباب ... ليس شبابي أنا وحسب ... فتاة جميلة تنضح بالشباب بإمكانها أن تصب الشباب عليَّ صباً ... يا لها من فكرة ذكية ولكنها صعبة ... يمكنني أن أفكر في هذا الأمر وأنا أتجول بالسيارة .... السيارة هي الاخري تستحوذ علىَّ كالفيلاً ، فهي نموذج مصغر لها ... سنوات الفقر تطارد خيالي ، الشيء الوحيد الذي أقذفه في وجهها ولا تعود بعده ، هو تلك القطعة الرخامية الجميلة التي علي أبواب مزارعي وقد كُتب عليها بخط جميل "مزارع الحاج إبراهيم سيد سمكة" ، هذه اللوحة الرخامية تمثل لي شيئاً آخر غير ما تمثله بالنسبة لكل من يعرفونها وينظرون إليها .... أعتقد أني أكثر من ينظر إليها . لذلك ما أسهل أن يستقطبها خيالي ويقذف بها سنوات الفقر والبؤس الذي يجفف الدم في عروقي .

لقد اقتربت من المقابر ، ما الذي دفعني إلي هنا ؟ لكأن هذه السيارة مسحورة ، يا لها من نكدية تحب الحزن والغم . ألم يرقها مكان سوي هذا !! ولكن لها ما أرادت ... لو لا أن الشباب قرين للأشجار والزروع لاتخذت شقة واستعدت فيها

شبابي ، هل معني هذا أنه لا مكان سوي الفيلا ؟ فالفيلا مستحيلة ؛ فهي مقر الاسرة وبالخصوص الزوجة العجوز ... إذن فما الحل ؟

كيف لم ألاحظ أن هذه اللافتة الرخامية التي أمامي الآن ، وقد كتب عليها "مدافن عائلة سمكة" من نفس نوع ولون تلك التي علي باب مزارعي ... ياه إن لدينا حوشاً واسعاً وحجرتين خاليتين ... الآن أصبح بإمكاني أن أصنع نموذجاً مصغراً من الفيلا ، وأجدد الشباب كيفما أشاء ، فالغانيات كثيرات .

من هذه ؟

ماذا تفعلين هنا يا سلوي .

كنت أفكر في أن نأتي ببعض الاشجار والحشائش لنزرعها هنا .

لماذا ؟ هل تريدين أن تجددي شبابك هنا أم تعيشيه .

سلوي – في نفسها – لابد أن أبي يسخر الجان والعفاريت .

٢٠/ ٢/ ٢٠٠٣م

قنبلة خلف الجبل

تمنت لو يمن عليها الزمن ويجود بجلسة صفا مع أبيها .. تسأله عن سر كرهه للبنات ، أليست مطيعة له فى كل ما يأمر به ، تتجول فى كل ناحية بدار أبيها ، تحدق فى جسمها ، تهرع إلى المرآة .. تنتقل بسرعة بين ملامحها حتى تفتر عزيمتها ويكل ويمل عقلها ، فتعود تتأملها برقة وتعاطف ، ترنو بالنظر إلى بشرتها القمحى.. ملامح وجه طفولية ، زغب السوالف يزيدها جمالا ، ولكن جسدها بمعالمه الفائرة له حديث آخر ... جسد يصرخ بالرغبة لا سيما إذا ما تأملت ملامحها الطفولية وتوقفت قليلاً أمام قرطها المتدلى يتراقص فى حنو وحرية.. لكم حقدت عليه من أجلهما وشفتاها اللعساوان اللتان فى لون حبتى تين رمادى طازج وتتساءل من سيطيب بهبرهما يوماً من الأيام ؟

صورة أبيها بشاربه الشائب وعقاله الأحمر تنغص عليها خلوتها .. كلامه لها يوقظ جروحاً هاجعة فى قلبها ، يجعلها تكره نفسها وجسدها الصارخ الذى لا يرحمها أبدا تمنت لو أن تستيقظ من نومها وتجد شارباً قد نبت في وجهها حتى غطى شفتها العليا وأن تتحسس نهديها فلا تجدهما إلا وقد تساوياً مع كشحها الدقيق ويا حبذا لو غاصت أناملها فى شعر الصدر .

ما من يوم تصحو إلا وتهرع للمرآة ، حتى إذا لم تجد الشارب المأمول تحسست نهديها ، وتهبط بكف رقيقة.. حزينة ..وتدور إلي أردافها لينبت الإحساس بالذعر والقهر وتثبت صورة أبيها في خيالها وهو يجذب أمها من شعرها مع الإحساس بلين وشموم أردافها .

كثيراً ما تبدلت ملامح وجه أمها من الصفع واللطم ، أما هى فلا تدع الفرصة تتسرب ليد كيما تفعل بها هذا .. ربما كان اجتهادها فى المدرسة بدافع الصيانة والوقاية .. يصيبها التقزز والاشمئزاز وتود لو تجد مكاناً تتوارى فيه من نفسها عندما

ترى أباها يضرب أمها ثم يأمرها بعدها بقليل بأن تعد له الحمام . ولم يعد إعداد الحمام بالنسبة لها رمزاً مستغلقاً ، فقد خبرته من التجريب ، وتختلط معالم الرضا والحنق فى وجه أمها ، فتبدو وكأنها عدو لها ؛ عدو مجهول الانتماء لأي الطائفتين ولكنها فى النهاية مقهورة مثلها .

تتطلع كثيراً بطرف خيالها إلى مستقبلها فتراه أحياناً مشرقاً ، ولكنه غالباً يختلف عن أيام أمها التى تحياها .. يبدو أن خيالها هو الآخر ليس فى صفها.. لا يسعفها بأكثر من هذا .

لا يطير خيالها إلى المستقبل كما تتمناه إلا في المدرسة بالتحديد عندما يثنى عليها أحد الأساتذة وترمق على إثرها خالدا زميلها وجارهم في البيت . وإن كان الصراع بين حبه وكرهه مازال قائماً فى قلبها وعقلها . وحبها له ساكن فى قلبها جبراً لوسامة ملامحه الرجولية وحب أهله له وكرهها لنفس الأسباب . لأشد ما تحنق عليه لسواد شاربه ، تمنت لو استطاعت أن تحرقه أو تستغرقه بقبلاتها أو تقضمه بأسنانها .

الظلام أنيسها الوحيد .. حرم عليها أبوها أن تغلق حجرتها عليها بالمفتاح أو غيره من الداخل.. المسموح به هو أن تغلقه بغير مفتاح فيسهل فتحه على أمها أو أبيها إذا أرادا. فهربت من هذا القانون الصارم الذى لا يحترم خصوصياتها إلى القبوع فى الظلام . أحياناً كثيرة تفاجأ بأبيها يفتح باب غرفتها ، ليرمقها بنظرته المعهودة المليئة بالريبة والاحتقار والتربص ، ويعود بعدها ليوصد الباب كما كان .. لم يعد لديها من شك فى أنها تمثل مصدر قلق له .. تود لو تتكلم معه وتطمئنه أو تمرق وتفعل ما تريد فتكون له كما تصورها وقلق منها . تود لو أمسكت برأس أبيها وقبلتها فيطمئن من ناحيتها ، أو أن تحطمها فتصبح طليقة الأصفاد والقيود .

لا تنسى ذلك اليوم الذى ذهبت فيه إلى "فضة" صديقتها القديمة فى البيت ، وما إن صعدت درج السلم المتهالك فى البيت القديم الذى تركه لها أبوها ومات لتعيش فيه مع أمها وحيدتين إلا ورأتها من بين أسياخ شباك صغير – مجردة تماماً بين رجلى ذلك المصرى المشعر ، لكم استحضرت هذا المشهد واستدعته من غياهب ذاكرتها أثناء جلوسها فى ظلامها الأثير .. الحقد على كل من حولها يخبو بجمالها الفاتن .. فى الصباح زغدتها أمها فى منكبها لتصحو وتستعد لآخر أيامها في الدراسة ، فقد تقرر الاكتفاء بهذا القدر من التعليم؛ فقامت متكاسلة لتنهض بأعباء الصباح المعهودة ، أخذت أدوات الامتحان وتدحرجت خارجة. يبدو أن الأتوبيس – اليوم – أكثر زحاماً من كل الأيام ، ولكنها أبت إلا أن تزرع جسدها في زحامه وسط تضجر ورغبة ثم جعلت تدفن رأسها تحت أبط شاب أمسك بزراعه حديد السقف ، أخذت تتشمم فى متعة رائحة لم تعهدها وعبقاً رجولياً فتح مسام شهوتها ، توقف الأتوبيس فى محطة أخرى ، وازداد الزحام ، فازداد انضغاطها بزميلها ؛ جعلت تمرر فخذها بين رجليه ، سال لعابه وداعب ردفيها ، أولته ظهرها في دعة واسترخاء ، وجدت نفسها محشورة بين جسدين يزداد اقترابهما تدريجياً فتمت غبطتها . في المحطة الثالثة نزلت وقد أمسك كل واحد بيد منها ، أيديهما تطوق معصميها كأساور الجناة ، الآن تعرف من هى ، تذكرت أن اليوم آخر أيام امتحاناتها ، فأفكت منهما يديهما ونظرت وراءها وأمسكت أدوات الامتحان وألقت بها من وراء ظهرها ، وغابت معهما وراء الجبل .

٢٠/ ٣/ ٢٠٠٣م

الساعة

دقات الساعة تؤلمنى . لكم تمنيت لو أن أصم فلا أسمعها ... الأمراض نالت منى فى كل موضع ، لا أعرف الحراك إلا قليلاً ؛ عندما أخرج للحمام مستّندًا .. حتى الصلاة أصبحت إيماءً لا حركة فيه .. فى بداية مرضى كان يسندنى شخص واحد فقط ، ثم أصبح اثنين حتى وصل عددهم الآن أربعة وربما خمسة .. لا أعتقد أن عددهم سيزيد عن هذا ، فأنا بينهم شبه محمول .... مواضع الحركة فى جسدى معدودة ، لا تتجاوز حركة جفونى ، ودقات قلبى ، وحركة بسيطة فى أطراف أصابعى ورقبتى .. لكم يذكرنى هذا الجمود بأيام الشقاوة والحراك الدائم . وأنا صغير كان الجميع يعتبروننى شقياً ، ليست من الشقاء الذى هو مرادف للتعاسة وسوء الحظ ، وإنما كثرة الشغب والمشاجرات مع الصبية . والكل عرفنى بهذا حتى أبى وأمى.. كان أبى فى البداية يحاول إثنائى عن سلوكى هذا بالتفاهم ولكنه لم يفلح ، فكثر عقابه لى . الشيء الوحيد الذى كان يصبره على تفوقى، فأنا متفوق منذ دخولى المدرسة الابتدائية .قليلاً ما كان يتجاوزنى أحد زملائى ، ولكنى ما كنت أرضى بالهزيمة على أى وجه ، فإذا ما تجاوزنى زميل ما كنت أعود إلى البيت إلا وقد أدميته كيلاً يفرح بسبقى ، وعندما دخلت الثانوية العامة أبقيت على هذا السلوك السيئ رغم ما يجره إلى من المتاعب والألم بعده ، ففى العام الأول من الثانوية العامة تجاوزنى زميلى محمد سعيد ، المهندس بالطاقة الذرية الآن ، فتصنعت زحاماً فى الأتوبيس ودفعته خارجه ، ومن حسن حظه أن كان الأتوبيس بطيئاً نسبياً ، فكسرت ساقه وحسب.. فى العام الثانى من حسن حظهم – وحظى أيضاً – لم يتجاوزنى أحد ، وقد كنت قبل ظهور النتيجة أفكر وأخطط لطريقة الانتقام ولكن الله سلم فى هذا العام .. فى العام الأخير منها تجاوزتنى – لسوء حظها – ابنة الأستاذ مرسى مدرس اللغة الإنجليزية بالمدرسة ،

ولم أكن أتوقع أن تفعلها هى أو حتى أى بنت ، فدبرت ونفذت مع بعض زملائى الفاشلين ممن كنت أستعين بهم فى مثل هذه الحالات ، ولكن العقاب هذه المرة كان قاسياً بعض الشيء ، فقد أشعلت – في زحمة الأتوبيس أيضاً - النار فى شعرها ولم أعرف شيئاًعنها بعدها .. يبدو أن الصراع قد هدأ ، فقد ظللت مسيطراً على الساحة فى الكلية حتى العام الأخير ورغم هذا لم تأخذنى الكلية معيداً ، ولا أدرى لماذا . الحياة جميعها أصبحت في نظرى مباراة أو جولة للصراع مع الآخرين ولابد أن أخرج منتصراً ، وكل ما يهمنى هو زمن هذه الجولة ، ومن هنا جاء اهتمامى بالوقت عموماً .

بالتدريج تحول صراعى إلى صراع مع الزمن .. أذكر أول مرة اشتريت فيها ساعة يد ، كانت مستعملة ومتهالكة ، اشتريتها من أحد زملائى فى المدرسة بقليل مما تجمع من مصروفى ، لم يكن يهمنى سوى أنها تعمل ، كل شيء لدى أصبح يقاس بمقياس الزمن – وحتى علاقتى بمن حولى من الناس قريب أو بعيد ، أبى وأمى وباقى أخوتى لم أكن أزورهم إلا فى الأعياد ، ولا تطول مدة الزيارة في الغالب على نصف ساعة . أبنائى قليلاً ما جلست معهم واستمع إليهم ، وغالباً ما يكون ذلك فى المواسم والأعياد أيضا .. فى صيدليتى الكبيرة كنت دائم الحركة حتى فى المعمل ، أتنقل بين العناصر والمواد والخامات والأجهزة وكأننى أعزف ، وكثيراً ما كنت أتناول طعامى وأنا واقف .

حتى علاقتي بزوجتى أصبحت تحدد بإطار الزمن ، كنت لا أطيل فى المداعبات والقبلات – على غير ما تهوى – وكنت أتعجب ممن يأتون إلىّ بالصيدلية ويهمسون في أذنى طالبين شيئاً بعينهم على علاقتهم بأزواجهم ، أحياناً كانت تأتينى سيدة أو شابة جميلة لنفس الغرض ، ولكنى لا أطيل الوقوف مفكراً فى هذه الأمور كيلاً يضيع وقتى هباءً ... تدريجياً أصبحت

دقائق المتعة بينى وبين زوجتى تقل .. أعتقد أنها تعانى من ذلك ، ولما كانت نفعية وواضحة مثلى لمحت لى بأن أستعين ببعض الأدوية التى توجد لدى بالصيدلية ، لمحت أيضاً برفضى متعللاً بما قد يكون لها من الآثار الجانبية ، وفي الوقت نفسه تلمست البديل فى أحد محلات العطارة .. تعجبت فى البداية لما لمست الأثر ، ولكنها تمتعت فى صمت وتغاضت عن الأمر .

خرق المرض – غير المتوقع – كل خططى فى حلبة الصراع ، كما خرق نظام حياتى خرقاً لا يرتق ، فأبدلنى من الحركة والنشاط الجمود والخمول ، وأصبح الأمر إجبارياً .. ابنى الكبير اضطلع بأمر العمل ، ولكنه يختلف عنى تماماً ، ليس فى صراع دائم مثلى ، بل هو رومانسى الطابع ، لمحت ذلك فيه فى عجالة .. يخرج مع خطيبته كثيراً وأحياناً يصطحبها إلى الصيدلية ويجلس معها أثناء العمل يتبادلان أحاديث الغرام ، التى لا أذكر أن كان لى نصيب فيها قط . جعلنى المرض عبئاً ثقيلاً على كل من حولى ، حتى زوجتى وأبنائي ، ولكنهم مضطرون . يحاولون ألا يظهروا تضجرهم ومللهم .. أعتقد أن ما ادخرت لهم من الثروة الطائلة يصبرهم عما يلاقون في مرضي .

البيت به أكثر من ساعة حائط ومنبه علي قطعة أثاث هنا أو هناك في أحد أركان الشقة الواسعة . تطلعت إلي الخير وانجلاء الهم ومعه المرض مع كل دقة لهذه الساعات أو رنة قاسية لأحد هذه المنبهات التي يتعامل معها باقي أفراد البيت ، ولما طال الفرج وتزايدت وطأة المرض ، أصبحت دلالة هذه الرنات عكسية تماماً . لكم تمنيت لو أن تنتهي هذه المباراة المملة التي أصبحت بغيضة إلي قلبي .. تقت إلي سماع صفارة الحكم النهائية .

ساعات الليل تجثم علي صدري بثقلها . أصبح نور الصبح أحب شيء إلي قلبي ، ينزرع معه الأمل في كل يوم في قلبي

ليحصده الليل بزحفه المتباطيء الذي يتوازي مع زحف المرض ... لا في مرضي أو صحتي اشتركت مع أسرتي في الأكل علي المائدة .... لا أذكر ما لونها ... أما أساس حجرتي فحفظته حفظني للتركيبات المعقد ، لو كنت أجيد الرسم لرسمتها دون أن أنظر فيها ولو مرة واحدة ... فشغلي أن أتجول فيها بنظري يمينه ويسره والعكس ، ويتسلق نظري هواءها إلي السقف ليعود ساقطاً ومرتطماً بأرضيتها .. أحتاج مزيداً من القوة ، فقط لكي انتزع بطارية هذه الساعة التي تصك أذني . يا لها من ساعة عتيقة ... لا أذكر أنها توقفت قط .

كان احتجاز صوت عقارب الساعة الذي ألفه في صمت الليل مفاجئة بالنسبة له ، لا يدري ما حدث لها ، تراها فسدت أو تعطلت ؟ أم نفذت طاقتها ، لم يفكر كثيراً وغاب في ظلمة الحجرة ، هارباً من ألم طالما راوده عن نفسه .

٥/ ٤/ ٢٠٠٣م